

دكتور

على أحمد السيد

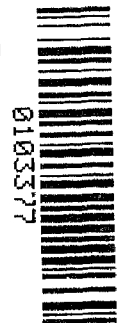
مدرس تاريخ العصور الوسطي
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
(فرع دمنهور)

مشاهدات

أودوريك دوبوردنون الفرنسيكاني في الصين
(توفى ١٣٣١م / ٧٣١هـ)

دار المعرفه الجامعيه
٤٠ ش سنتر - الأزرطه - ت ٤١٣٠١٦٣
٣٨٧ ش ضال السوسن - السلمى - ت ٥٩٧٣١٤٦

١٩٩١



Bibliotheca Alexandrina

مشاهدات
أودوريك دو بوردنون الفرنسيكاني في الصين
(توفى ١٣٣١م / ٧٣١هـ)

دكتور

على أحمد السيد

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
(فرع دمنهور)

دار المعرفة الجامعية

١ شارع مونتيزيمو، المنيا، جمهورية مصر العربية، ١٤٣-١٤٤
٣١١ شارع جمال عبدالناصر، المنيا، جمهورية مصر العربية، ٥١٧٣١٤٦

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

محتويات البحث

الصفحة	الموضوع
٧	تمهيد
١٠	التعريف برحلة أودوريك دو بوردونون.
١٣	جغرافية وتاريخ الصين قبيل الرحلة.
١٦	مشاهداته في سونستالاي.
٢٢	مدينة زيتون.
٣٥	مدينة أهامزان.
٤٣	مدينة شيلفو.
٤٤	مدينة يمزاي.
٤٨	المدن على الطريق إلى حاضرة المغول في الصين.
٥١	مدينة كامباليت (بكين).
٧٧	خاتمة وتعقيب.
٨٧	الملاحق.
٩٥	أهم المصادر والمراجع.
١٠١	الأشكال والخرائط.

مشاهدات

أودوريك دو بوردونون الفرنسي سكانى فى الصين

(ت ١٣٣١ م / ٧٣١ هـ)

تمهيد :

بعد القضاء على سيادة الأوروبيين فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى بسقوط عكا عام ١٢٩١ م. وفشل الحروب الصليبية هناك. وعقب عجز البابوية عن القضاء على القوى الإسلامية لاستخلاص بيت المقدس واستعادة النفوذ فى الشرق، اتخذت المحاولات التالية أشكالاً أخرى خاصة بعد أن فترت الروح الصليبية لدى القوى الزمنية تاركة فى ساحة الصراع القوة الدينية^(١) ممثلة فى جهازها الكهنوتى الكنسى على رأسه الباباوات ليخططوا وينظموا للمرحلة التالية، وفيها آثرت أن تُعول الفكر إلى حوار السيف وسار هذا الاتجاه الجديد فى محورين أساسيين : إذ ظهر المفكرون Les Propagandistes انطلاقاً من الكنيسة ينادون بأفكار تهدف إلى تضييق الخناق على المسلمين بمختلف الوسائل، ومنها فرض الحصار البحرى على دولة الماليك فى مصر والشام^(٢). أما الاتجاه الآخر، فتمثل فى محاولة الكنيسة الغربية تنصير الشرق المغولى الوثنى لاستخدامه ضد المسلمين^(٣).

King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, ^(١) p. 265.

^(٢) للتعرف على أبرز ملامح الزعامات الفكرية فى الكنيسة الغربية وأهم المخططات السياسية لدى بعضهم، ومنهم : بيار دى برا Pierre Du Bois ويلم آدم Guillaume Adam، رومان لول Roman Lull، راجع :

Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, First published, London 1938, pp. 47 - 74.

^(٣) جوانفيل، جان دى : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة : حسن حبشى،

القاهرة ١٩٦٨ م. صفحات متفرقة. راجع أيضاً :

Nowell, Charles, E., Historical Prester John, Speculum, vol. 28, 1953, pp. 4 - 35.

وفى إطار الاتجاه الثانى، لعبت مؤسسة الرهبان الفرنسيسكان دوراً أساسياً فى استكمال مخططات الكنيسة حيال الشرق عامة والصين بخاصة بفضل جهود عدد من رجالها البارزين، وقد ساعدتهم فى ذلك بعض التجار المتحمسين لإيجاد قدم لهم هناك. وفى هذا الصدد سجل أحد الباحثين أن أول بعثة تبشيرية للرهبان الفرنسيسكان إلى الشرق قد أنفذها البابا جريجورى التاسع (Gregory I X) (١٢٢٧-١٢٤١م). وذلك فى عام ١٢٣٣م. بعد أن وضع بعض القرارات المنظمة للعمل التبشيرية^(١).

وفى عام ١٢٤٦م، برز اسم جون دو بيان - كارينو Jean de Pain- Carpino بصفته من أوائل المبشرين المسيحيين موفداً من قبل البابوية إلى بلاد المغول فى آسيا، وقد استغرقت رحلته نحو عامين عاد بعدها إلى إيطاليا ليقدّم وصفاً تفصيلياً عن البلاد التى زارها مما شجع على تكثيف البعثات التبشيرية الأوربية إلى مدى أوسع فى القارة فى المرحلة التالية، فكانت بعثة وليم روبريك William Rubruk التبشيرية التى وصلت حتى بلاد منغوليا عام ١٢٥٢م. واستغرقت عامين تقريباً وخلّاهما قاهل خان المغول الأعظم مانكو Mongke (١٢٥١ - ١٢٥٩م).^(٢)، فأضافت رصيلاً من المعلومات عن هذه القارة العملاقة لمن جاءوا من بعده. أما عن دور التجار فى هذا

(١) Atiya, A.S., Op. Cit., pp. 238 - 239.

(٢) كان جون دو بيان - كارينو قد خرج من مدينة ليون Lyon الفرنسية حاملاً رسالة من بابا روما إسكندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤ - ١٢٦١م). فى اتجاهه إلى الشرق، فاجتاز بوهيميا Boemia وليتوانيا Lituania وروسيا Russia حتى وصل بلاد المغول عند نهر الفولجا Volga فاستقبله باتو Batu ابن جانكيز خان واستلم منه الرسالة، أما وليم روبريك فقد خرج من القسطنطينية معبراً من البابوية أيضاً حتى بلغ مدينة قارقورم Caracorom حاملاً رسالة إلى الخان الأعظم وفى طريق العودة بلغ بلاد أرمينيا ثم مدينة طرابلس فى الشام التى كانت خاضعة للصليبيين آنذاك، ثم قابل الملك فى عكا ليسلمه رسالة كذلك، ولمعرفة المزيد، راجع :

Domenichelli, T., (ed.), *Sopra la Vita e I Viaggi del Beato Odorico Da Pordenone dell'Ordine de' Minori Sotto ed. la direzione del P. Marcellino de Givezzo, Prato, 1881, pp. 16 - 19.*=

الاتجاه فيعد الأخوان نيكولو ومافيو بولو Nicolò and Maffeo Polo أول من وصل من الأوربيين إلى الصين عام ١٢٥٥م. واستغرقت الرحلة نحو أربعة عشر عامًا عاصرا خلالها تولى قوبيلاي خان Qubilai khan - أحد أحفاد خنكيز خان - عرش دولة الصين (١٢٦٠ - ١٢٩٤م) الذي نقل مقر حكمه من قرة تورم Caracorum في منغوليا إلى بكين التي ستذكر لاحقًا كامباليت Cambalit ونقًا للنص اللاتيني^(١). وعند عودتهما إلى وطنهما فينيسيا أرسل الخان المغولي معهما رسالة موجهة إلى البابا. وبعد عامين عادا برد البابا واصطحبا معهما ماركو Marco ابن نيكولو لتبدأ رحلتهم عام ١٢٧١م الشهيرة باسم رحلة ماركو بولو وفيها مروا ببلاد آسيوية عديدة حتى بلغوا الصين بعد ثلاثة أعوام من بدء رحلتهم فاستقبلهم قوبيلاي خان وأحاطهم برعايته بعد أن تسلّم رد البايوية منهم. وبعد حوالي عشرين عامًا قضاها ماركو بولو وأبوه وعمه في الصين عادوا إلى بلادهم. وقد أسهمت رحلتهم في تزايد معلومات الأوربيين عن الصين والتبت وغيرها من البلاد الآسيوية.^(٢)

ويشير الباحث هنا إلى أن نص رحلة أودوريك التبشيرية قد نشر أكثر من مرة مصححًا بمقدمة وبعض التعليقات في أبحاث القرن الماضي، وقد اعتمد في دراسته هذه على النص اللاتيني وما يقابله باللغة الإيطالية نشر دو مينيشيلي في عام ١٨٨١م، وسوف يشار إلى ما تم اقتباسه من النص اللاتيني باسم صاحبه أودوريك، أما إذا تم الاستعانة بأفكار الناشر فسيذكر باسمه. أما الإصدار الثاني فكان في عام ١٨٩١، نشر هنري كوردييه وترجمه هنري يول إلى الإنجليزية عام ١٩١٣م. وبالمقارنة لوحظ فيها بعض التصريف، الأمر الذي دفع الباحث إلى الالتزام بالنص اللاتيني. ويمكن مراجعة ما نشره كوردييه وكذلك ترجمته الإنجليزية في كل من :

Odoric de Pordenone, les Voyages en Asie au XIV^e Siècle du Bienheureux Frère Odoric de Pordenone, ed. Henri Cordier, Paris 1891, Odoric of Pordenone Cathay and the Way Thither, vol. II, Rev. ed. by H. Cordier, trans. by H. Yule, London, 1913, pp. 173 - 213.

^(١) راجع الرسوم المختلفة لهذه المدينة وغيرها من بقاع الصين الرئيسية الواردة في المصادر المختلفة في ملحق خاص في عقب الدراسة.

^(٢) للتعرف على المزيد عن حياة ماركو بولو ورحلاته راجع:

Komroff, M., The Travels of Marco Polo, New York, 1930.=

التعريف برحلة أودوريك دو بوردونون:

إن هذه النبذة التمهيديّة ضرورية لتساعد على فهم وقائع ومعلومات وأبعاد رحلة أودوريك دو بوردونون Odoric De Pordenone التي تشكل محور هذه الدراسة؛ فما من شك أنها أفادت من التجارب السابقة بحيث أصبح من المفترض أن تكون أكثر توضيحاً. وفي الواقع فقد لوحظ في الدراسات الجغرافية الحديثة أنها أثنت على ما ورد بالرحلة من مادة حتى أنها أعدت ضمن التجارب والخبرات الأوربية المبكرة التي شجعت على الكشوف الجغرافية. كما صنفت على أنها أهم الرحلات الأوربية إلى آسيا في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي.^(١)

كما يمكن القول بأنها لا تقل أهمية عن رحلات ماركو بولو السابقة ولا رحلات ابن بطوطة اللاحقة عليه نظراً للأمانة والدقة التي غلبت عليها. وفي هذه الدراسة سيتأكد لنا صدق هذه الرؤية بعد موازنة ما ساقه أودوريك من مادة خاصة بالصين بما ورد لدى التاجر البندقي والرحالة المغربي على وجه الخصوص، فضلاً عما يتيسر من مادة إضافية أخرى في المصادر المعاصرة.

ولعل خير ما نبدأ به هو التعرف على صاحبها. ويعد أفضل تأريخ للراهب الفرنسيكاني أودوريك ما ورد على لسان الأب جوليوفيتش الذي قدم دراسة وافية مدققة ومتخصصة في حياة الرهبان الفرنسيكان أصحاب الرحلات إلى الشرق وكان منهم أودوريك، وذكر لنا عنه أنه رعا ولد في عام ١٢٦٥م، في ضاحية فيلانونا Villanova القريبة من مدينة بوردونون Pordenone المنتسب إليها، ودخل سلك الرهبنة الفرنسيكانية ببلوغه الخامسة عشر من العمر، ثم أصبح قساً بعد عشر سنوات، وحينئذ أظهر تحمسه الشديد للالتحاق ببعثات الفرنسيكان التبشيرية في

- ولعل أهم ما يذكر عن حياته أنه ولد حوالي عام ١٢٥٤م. في البندقية، وقد عينه الخان المغولي ممثلاً له في العديد من الزيارات الرسمية، وكلفه بمهام مختلفة أهلته لتولي منصب الحاكم في إحدى المدن الصينية لمدة ثلاث سنوات. ثم عاد إلى البندقية عام ١٢٩٥م. وتوفي بها عام ١٣٤٢م.

^(١) Panikkar, K.M., Asia And Western Dominance, A Survey of Vasco Da Gama Epoch of Asian History 1498 - 1945, London 1959, p.21 .

آسيا، فلاقى تشجيعاً من مقدم الطائفة، وكانت أول رحلة له فى الشرق فى عام ١٢٩٦م. بعد فترة قضاها فى عزلة الرهبان وفى رحلته الثانية، خرج من البندقية Venise متجهاً إلى الشرق الأقصى فى عام ١٣١٤م. أمضى هناك كل الفترة الممتدة حتى عودته إلى بلاده حوالى أوائل عام ١٣٣٠م. للإعداد للقيام برحلة ناشئة يصطحب فيها عدداً من الرهبان، بيد أنه سرعان ما حفر مريضاً وهو فى طريقه إلى مقر تنصيبه راهباً حيث مدينة أودين Udine الواقعة فى ناحية فريول - Frioul ولذلك سر بمدينة بلوا Padoue وفيها ألقى على الأخ مارشيزينو دو باسانو Fr. Marchesino de Bassano نص رحلته هذه وخلصه تجاربه فى بلاد الشرق وما لبث أن توفى ودفن فى مدينة أودين فى الرابع عشر من يناير عام ١٣٣١م. وسط هالة من الاحترام والتبجيل لما بذله من جهد من أجل الكنيسة حتى عُدَّ من القديسين.^(١)

والجدير بالذكر أن أودوريك لم يميز حين دون خلاصة تجربته الطويلة فى الشرق بين ما يتعلق منها برحلته الأولى وما يتعلق منها بالرحلة الثانية، فجاء النص غير محدد لتاريخ الوقائع بحيث يصعب تماماً الفصل بين ما ورد من أحداث بالرحلتين، الأمر الذى فرض على الباحث التعامل معهما على أنهما رحلة واحدة.

ومن ناحية أخرى، رأى الباحث الالتزام بأن يدرس مناطق الصين الواردة بالرحلة بشكل متتابع يتفق مع ترتيب زيارتها ذلك أنه كان يصعب تصنيف مادتها إلى جوانب سياسية وحضارية متميزة دون تتبع أركان الرحلة ذاتها فضلاً عن ذلك، فينبغى الإشارة إلى أبرز الصعوبات التى واجهت الباحث لإيجاز بحثه فقد ظهر المسمى الواحد للمواقع برسوم مختلفة لتعدد اللغات المستخدمة فى الدراسة مما استلزم التمييز والمقارنة للاستدلال على حقيقة المسميات وتوحيدها وعليه أثر الباحث أن يستخدم اللغة العربية أساساً للتعبير عن المسميات مرتكزاً فى الأصل على الألفاظ الفرنسية التى

Golubovich, Girolamo, Biblioteca Bio - Bibliografica Della Tierra Santa^(١)
-E Dell'Oriente Franceseano, (Dal 1300 AL 1332), 5 vols, Florence, 1906
1927., Tomo III, p.p. 374 - 378.

تشكل لغة معظم مراجع البحث الرئيسية. وقد خصص الباحث فى نهاية دراسته هذه ملحقاً يمحصر فيه قدر إمكانه الرسوم المختلفة لاسم المكان الواحد.

وتبرز أهمية الرحلة فى أن من يقرأ نصها يدرك أنها تنطوى على معلومات مهمة، كما أن صاحبها كان على درجة لها شأنها بين رجالات عصره فى الكنيسة الغربية. وفيما يختص بما ورد بالرحلة ويتعلق ببلاد الصين، يلاحظ أنها ضمت زهماً من المعلومات عن الجانب الاجتماعى، ومن ذلك التركيبة الدينية للمجتمع وطوائفه المختلفة، أجناسه وأعرافه المكونة له، طبقاته، ثقافته وعمرانه، بل وأبرز الأنشطة الاقتصادية فيه. وكان صاحب الرحلة قد أخبرنا أنه حصل على ما ساقه من أفكار وأخبار من خلال المعاشة وبما وجهه من أسئلة إلى أهل البلاد أنفسهم بمختلف طوائفهم^(١)، الأمر الذى أثرى الرحلة لتعدد مصادر المعرفة. وأخيراً فكتابات أودوريك تشتمل على مادة خصبة تعد أساسية فى التأريخ الحضارى للبلاد التى ارتحل إليها وخاصة الصين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى خاصة فى النواحي الحضارية، تلك الأسرة التى حكمت الصين بصفتها إحدى الممالك المغولية الأربع التى كانت تشكل إمبراطورية جنكيز خان لكنها كانت تحتل مكان الريادة بين هذه الممالك.

من ذلك نجد الدراسة تتجه نحو تناول حقبة من تاريخ الإمبراطورية المغولية العريض، وهذا التاريخ يتطلب بطبيعة الحال إلماماً بلغات عديدة للتعرف على أبعاده المختلفة مثل: المغولية، الصينية، الفارسية، العربية، التركية، اليابانية، الروسية، الأرمنية، الجورجية، اللاتينية ولغات أخرى^(٢). وعليه تبرز مشكلة اللغة عائقاً أمام إجراء دراسة شاملة ومتعمقة اللهم إلا بالرجوع إلى الترجمات. بيد أنه من المناسب الوقوف على جزئية محددة من هذا التاريخ لتوضع تحت الفحص والتحليل والدراسة بعد الإمساك بزمام اللغات المتعلقة بها. وهذا هو ما همس الباحث لإتمام هذه الدراسة.

Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 199.

(١)

Morgan, D., The Mongols, U.S.A., 1996, p.5

(٢)

جغرافية وتاريخ الصين قبيل الرحلة :

ويجدر الإشارة قبل الخوض فى الدراسة إلى الملامح الأساسية لجغرافية الصين وكذلك تاريخها قبيل الرحلة، فخلال العصور الوسطى لم تكن جغرافية الصين واضحة المعالم لدى الكتاب الأوربيين وعلى العكس من ذلك اهتمت المصادر الإسلامية بالحديث عن حدودها ومدنها وبقاعها الأخرى والكثير من مظاهرها الحضارية ومخلص من كل هذا الزعم إلى أن الصين تمتد من البحر (المحيط الهادى) شرقاً حتى التبت وبلاد الترك غرباً^(١)، وأطراف مملكتها تصل لتضم بعضاً من التبت «ومن دان بدين أهل الأوثان منهم»^(٢) وأن بها «ثلثمائة مدينة كلها عامرة وعلى كل خمسين مدينة ملك» من قبل ملك الملوك^(٣)، وعلى ذلك فهي «بلاد واسعة ... عرضها أكثر من طولها .. تقطع فى شهرين ... وأنها كثيرة الماء، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات، وافرة الثمرات، ومن أحسن بلاد الله وأنزهها»^(٤) بل فإن إقليمها لا يضاهيه إقليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف بآب حيا، معناه ماء الحياة (يقصد به نهر اليانج-تسى Yang - tse) ويسمى أيضاً نهر الصين ومنبعه من جبال بقرب خانبالق يمر فى وسط الصين إلى أن ينتهى إلى صينية الصين (أى فى الجنوب) وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كليل مصر، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه التوافير الكثيرة.^(٥)

(١) ابن خرداذبة (ت حوالى ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م): المسالك والممالك، ليدن ١٣٠٩ هـ./ ١٨٩٢م. ص ٦٦.

(٢) الإصطخرى (ت القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٠.

(٣) ابن النديم (ت ٣٨٣هـ. / ٩٩٣م.): فهرست ابن النديم، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ. ص

٤٩١، راجع أيضاً: الإدريسي (ت ٥٦٠هـ. / ١١٦٤م.): نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار

والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، نشر: راش مولر، ليدن ١٨٩١م، ص ١٦٦.

(٤) القزوينى (ت ٦٨٢هـ. / ١٢٨٣م) : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م. ص ٥٣.

(٥) ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ. / ١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب

الأمصار وعجائب الأسفار، كتب هوامشه وعلق عليه : طلال حرب، الطبعة الثانية، بيروت

أما عن تاريخ الصين، فقد خضعت لحكم أسرة سانج Sung القوية منذ عام ٩٦٠ حتى عام ١١٢٥م. واقتصر نفوذ حكامها على الجزء الجنوبي من الصين، وظل الوضع السياسي مستقرًا بشكل نسبي حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، حين ذاع صيت العنصر المغولي بعد اتحادهم والتفافهم حول جانكيز خان وكانت البلاد التي يغلب عليها العنصر التركي لا تعرف عن هذه القبائل إلا القليل بحكم الجيرة وبعض المعارك المتبادلة كما كانت محدودة الاتصالات الخارجية بالغرب اللهم إلا بالتجار الأوروبيين القلائل وبعض البعثات التبشيرية النسطورية Nestorianism التي حققت نجاحًا محدودًا في الدعوة إلى المسيحية على هذه العقيدة^(١). وفي عام ١٢١١م. سقط معظم شمالي الصين في يد القوات المغولية، ثم أكمل قائدهم جانكيز خان غزوه للمنطقة بالاستيلاء عنوة على كامباليت في عام ١٢١٥م. وعاد إلى عاصمته

=Barthold, W., Turkestan Down to The Mongol Invasion, trans. from the original.

^(١) تنسب النسطورية إلى نسطور الذي اختير عام ٤٢٨م. بطريركًا للقسطنطينية؛ ولد في شمال الشام وتطور أهم معتقداته حول طبيعة السيد المسيح فهو في نظره ذو طبيعتين: إلهية وبشرية ولذا اتهم نسطور بالهرطقة في مجمع أفسوس عام ٤٣١م. ونفى إلى مصر عام ٤٣٦م. ولكن أساقفة الشرق أيبوه، فانتشرت معتقداته في جهات كثيرة هناك. انظر: عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧م. ص ٢٠٦ - ٢٠٧، ج ٥٢؛ وقد أكدت جهود المهتمين بدعم الديانة المسيحية في فارس على أن يمدوا نشاطهم انطلاقًا منها إلى الشرق الأقصى حيث أرسلوا مبشرين نساطرة إلى بلاد الصين. ولعرفة المزيد عن الدعوة النسطورية المبكرة، انظر: ألبر أبونا: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية من انتشار المسيحية حتى مجى الإسلام، ط ١، ٣، بيروت ١٩٩٢م. ج ١، ص ١٤٣ وبرغم أن السلطات سمحت باعتراف النسطورية فلم يكن لها وزن كبير بين العقائد الأخرى في الصين، وتأثر وضعها بالأوضاع السياسية، فبينما تعرض معتقدها للاضطهاد في الجنوب حوالي عام ٨٤٥م، لم يتأثر بنو ملته في الشمال بذلك، ولكنهم ظلوا يمثلون طائفة دينية داخل المجتمع الصيني حتى أواسط العصور الوسطى، راجع:

Wittfogel, K.A., and Chia-Shêng, Fêng, History of Chinese Society, Liao (907 - 1125), New York 1949, pp. 214, 291, 307.

قاراقورم فى العام التالى. وفى الجولة الثانية تم له الاستيلاء على مملكة كين فى الغرب ثم بعث بمبعوثيه فى عام ١٢٢١م. إلى ملك سانج فى الجنوب بغرض التحالف، وعقدت المعاهدات بين الطرفين ولكن تابعت الحملات المغولية حتى تمكن قوبيلاي خان من فرض سيادته^(١). على مجمل بلاد الصين بما فيها القسم الجنوبى وتم القضاء تمامًا على حكام أسرة سانج فى عام ١٢٧٩م. / ٦٧٧هـ.^(٢). وكان ذلك إيذانًا بتأسيس أسرة يوان Yuan وفى ظلها عانى أبناء الصين من الهان والأقوام الأخرى من الاضطهاد العنصرى حتى قضى عليها عام ١٣٦٧م وقد قسم حكام يوان السكان إلى أربع درجات : المغول فى الدرجة الأولى وشعب سمو فى الغرب فى الثانية وشعب الهان فى الثالثة وشعب الهان الجنوبى فى الأخيرة^(٣). وإضافة إلى هذه الإمبراطورية نجح المغول فى تأسيس ممالك شاسعة لهم فى الغرب.

أما عن خطط سير أودوريك فى ذهابه إلى الصين، فقد مر فى طريقه بالقسطنطينية Constantinople، وتبريز Tabriz، وبغداد Baghdad، وهرمز Ormuz، ثم ارتحل بحرًا إلى مالابار Malabar حيث الساحل الشرقى للهند، ثم سيلان Ceylon، ثم مدراس Madras. ومن هنا ذهب إلى جزيرتى سومطرة Sumatra وجاوا Java فانتقل إلى كيامبا Ciampa وهى إقليم الهند الصينية حاليًا. ومن هناك

^(١) Barthold, W., Turkestan Down to The Mongol Invasion Trans. From the original Russian and revised by the Author with the assistance of Gibb, H. A. R., Second Edition, London 1928, pp. 393 - 394, 404, CF. Also Morgan, D, Op. Cit, pp. 61 - 72, 178.

ومن المراجع التى سلطت الضوء على العناصر القبلية المؤلفة لشعب الصين انظر : السيد الباز العربى : المغول، بيروت ١٩٨٦م. ص ٢٨ - ٣٦.

^(٢) الهمداني (٧١٩هـ. / ١٣١٨م.) : جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز كاترين خان من اوكشاي قآن إلى تيمور نيورقا آن، نقله إلى العربية فؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة : يحيى الخشاب، بيروت ١٩٨٣م. ٢م، ج ٢، ص ٢٧٠.

^(٣) أيرين فرانك، ديفيد براونستون : طريق الحرير، ترجمة : أحمد محمود، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣١١.

ارتحل إلى القسم الجنوبي من الصين الذي أورده باسم إقليم مانزى Manzi حيث جاب العديد من المدن والبقاع، وعادة ما كان يرتحل سيراً وحافياً، وفقاً لقواعد الرهينة الفرنسيةكانية في محاذاة الأنهار قاطعاً الصين الوسطى، ثم ختم رحلته بأن وصل إلى شمالي الصين التي أطلق عليها كاثاي Cathay أى بلاد الخطأ وهو المسمى العربى لها^(١) واصفاً فيها العاصمة كامباليت بمزيد من التفصيل. وفي الحقيقة فسوف تتناول هذه الدراسة بالتحليل والنقد المقارن المعلومات التي سجلها صاحب الرحلة، عما شاهده في هذه البلاد البعيدة الشاسعة.

مشاهداته في سونستالاي :

كانت أولى المدن الصينية التي وصل إليها أودوريك هي مدينة أطلق عليها اسم **سونستالاي** Senstalay وهو مسمى قريب من الاسم الشائع لها في هذا العصر كونسكال Conscala، فقد عبرت بعض المصادر الإسلامية المعاصرة عن ذات المدينة بمسمى تازيكان حين كلان كما أدرك ابن بطوطة الذي زارها مدة أسبوعين بعد حوالي عشر سنوات من زيارة أودوريك القصيرة لها، أن الأهالي يسمونها صين كلان. ومن خلال وصف كل من المبشر الفرنسيكاني والمصادر الإسلامية يتبين أنها مدينة كانتون Canton^(٢). وجاء في وصف أودوريك لها أن حجمها أكثر اتساعاً من ثلاثة

(١) الإدريسي : المصدر السابق، ص ١٤٩. الهمذاني : المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٧١ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٢٨، ٦٤٠. ويعد الهمذاني أفضل من تحدث عن جغرافية الإقليم وما أضافه «ولايات الخطأ بلاد واسعة جداً وممتدة الأطراف، وعامرة إلى أقصى حد.. وليس في كل الربع المسكون بلاد تضارعها قط من حيث العمران وكثرة الخلق.. وتمتد خان باليغ [خان باليق - بكين] وسط بلاد الخطأ.. ويقصدها الناس بالسفن. ويكثر فيها المطر بسبب قربها من البحر وبعض تلك البلاد حار، وبعضها بارد».

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 178

(٢)

الهمذاني : المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٧٩؛ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٥. ومسمى كونسكالأ أوجين كلان لفظة فارسية، تعنى الصين الكبرى. وقد استدل الباحثون باستخدام أودوريك للفظات الفارسية على إلمامه بهذه اللغة. ويضيفون أنها كانت تستخدم =

أضعاف حجم مدينة البندقية، وهى على ضفة نهر عظيم وعلى بعد مسيرة يوم واحد من المحيط الذى كانت مياهه تتوغل لمسافة كبيرة فى اليابس بفعل المد، أما الميناء فلا يمكن مقارنته بأية موانئ «إذ توجد به أعداد من السفن وحركة ملاحه أنشط من مثيلاتها فى إيطاليا كلها»^(١). وكان العرب سابقين فى وصف المدينة التى أطلقوا عليها اسم خانقو وأعدّها ابن خردادبة «المرقا الأكبر.. وفيها الفواكه على اختلاف أنواعها والبقول والحنطة والشعير وتصب السكر» وينطبق عليه ما أطلقه على باقى الموانئ الصينية الهامة بقوله : «كل مرفأ من موانئ الصين نهر عظيم تدخله السفن ويكون فيه المد والجزر»، ويؤكد ابن الفقيه الهمداني ذلك ذاكراً أنه إذا ما تجاوزت السفن البحار قاصدة الصين «صرت إلى ماء عذب يقال له خانقو، يكون فيه مد وجزر فى اليوم والليلة مرتين»^(٢). وهكذا فبرغم الفارق الزمنى بين ما جاء فى وصف أودوريك والجغرافيين العرب إلا أن معظم وصف كانتون متفق عليه.

وفى أول انطباع له عنها، نجد أنه يذكر أن كل شئ فى هذا العالم الذى رآه حديثاً يبدو فريداً ومدهشاً، إذ تغمر زائرها السعادة حين تقع عينه على ما فى البلاد المطلة على المحيط. وما لبث أن لفت نظره طبيعة الشعب الصينى ذلك أنه «لا يمكن حصره كذلك فإن الخبز والنبيد والأرز واللحم والأسماك وكل ما هو ضرورى للحياة يوجد بوفرة. وهنا، نجد كل الرجال إما حرفيين أو تجاراً؛ ولذا فالمستوى المعيشى لديهم مرتفع، حتى أنه لا يوجد متسول واحد فيما بينهم»^(٣). وهذا الانطباع الأول

= فى الأعمال التجارية نظراً للدور الكبير الذى لعبه الفرس فى التجارة مع بلاد الشرق الأقصى خاصة خلال القرن الرابع عشر الميلادى. انظر :

Matrod., H., Odoric de Pordenone (1265 - 1331), son "Chemin de Pèrègrination", Paris, 1938, p. 107.

Odorio Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit. (١)

(٢) ابن خردادبة : المصادر السابق، ص ١٦٦ انظر أيضاً : ابن الفقيه الهمداني (ت حوالى ٣١٨هـ/٩٣٣م) : كتاب البلدان، تحقيق : يوسف الهادى، بيروت ١٤١٦هـ. / ١٩٩٦م.

ص ٦٨.

Matrod, H., Op. Cit, p. 107.

(٣)

عن المجتمع في كانتون يوكده كتابات الرحالة المسلمين إذ عبروا عن ارتفاع كثافة السكان فيها بصفة عامة فذكروا أن أعدادهم لا تحصى^(١) كما إنه من المعروف عن تلك البلاد منذ القدم تلك الظاهرة حتى يومنا هذا. من ناحية أخرى أكد هولاء الرحالة على الحقيقة التي ذكرها أودوريك بشأن اشتغال الصينيين في الحرف والتجارة إذ يقول أحدهم: «أهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم». على حين ينص آخر على أن: «أهل الصين أعظم أحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفهم الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيها». ويرى ثالث أنهم أحذق الناس في الصناعات وفي النقش والتصوير «يعمل الصبى منهم ما يُعجز أهل الأرض»^(٢). وبالتمعن في كلمات أودوريك ذاتها المؤكدة على ارتفاع مستوى المعيشة ووفرة السلع الأساسية نستشف وجود الحرف والصناعات القائمة عليها مثل الزراعة والصناعة والرعى وصيد الأسماك. وفي وصف الجنس السائد في سونستلاي، يذكر أودوريك أن رجالهم ذوى قامة متوسطة، كما أن لونهم يميل إلى الشحوب، ولهم لحمي طوال جلدًا سوداء ويشبهون القلظ. أما النساء؛ فيتميزن بحسنهن، ويعيش الكثير منهن في حياة مفعمة بالمرح والاحتفالات^(٣). وكان ماركو بولو قد تحدث عن نساء الصين في بعض الجهات فأقر بما كن عليه من حسن، فذكر أنهن شقراوات مجردات من شعر الجسم ذوات قد جميل إذ إن الجمال هو الصفة التي يقدرها الجميع ولذا فالرجال كثيرون الولع بمجالس النساء كما تعددت الزوجات متى كان الرجل قادرًا على إعالتهن. ولم تخف حال نساء الصين الجنوبية عن ابن بطوطة أيضًا فأشار إلى رخص ثمن الجوارى نظرًا «لأن أهل

(١) الإدريس: المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) المسعودي (ت ٣٤٥هـ. / ٩٦٠ م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، بيروت ١٣٨٦هـ. /

١٩٦٦ م. ج ١، ص ١١٠، ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣١، ابن الوردي: المصدر

السابق، ج ١، ص ٨٥.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 177.

(٣)

الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، فليس ذلك عيباً عندهم»^(١). ومن ثم تتضافر المعلومات فى نسيج واحد يثبت أن المرأة الصينية المغولية عادة ما كانت تسلك سلوكاً متحرراً وتلعب دوراً إيجابياً فى مجتمعها.

ومما أدهش أودوريك أيضاً أنه قابل مسيحيين فى سونستالاي مكوناً بعض العلاقات معهم، ومن ناحية أخرى كون علاقات مع كل من المسلمين والبوذيين Buddhistes^(٢). وبعض القادة العسكريين العاملين فى الجيش الامبراطورى الذين أمدوه بالمعلومات التى سألهم عنها، ومما عرفه منهم أن هذا التوزيع للطوائف الدينية هو ذاته فى بتمية إقليم جنوبى الصين، وكان أشد ما تألم له هذا المبشر وصدمه؛ علمه بأن الوثنية هى العقيدة السائدة فى مجتمع هذه المدينة بل والإقليم، ولذا فسرعان ما انبرى فيما بينهم موجهاً خطبة حماسية داعياً إياهم إلى الإيمان بالله^(٣). وفى الحقيقة يعد ذلك

Marco Polo, The Travels of Marco Polo (the Venetian), Revised from Marsden's Translation and Edited with Introduction by Manuel Komroff, New York 1930, pp.99-100.

ابن بطوطة : المصادر السابق، ص ٦٣٢.

يهدر الإشارة إلى أن الباحث أفاد مما ورد بالترجمة العربية لرحلات ماركو بولو من حواش لم ترد فى النسخة الإنجليزية. راجع : ماركو بولو : رحلات ماركو بولو، نشرها بالإنجليزية مارسدن وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٧٧، ص ١١٦، ج ١.

^(١) ينسب هؤلاء إلى الزعيم الدينى جوتاما بوذا المتوفى عام ٤٧٠ ق.م وتنتشر هذه العقيدة فى أجزاء كبيرة فى شرقى آسيا ومنها بعض أقاليم الصين برغم ظهورها فى أول الأمر فى الهند. وتتلخص فى أن الألم جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة وتكوينها وأن الإنسان يستطيع التخلص منه بالتطهير الذاتى فى الناحيتين الأخلاقية والعقلية. وينتمى البوذيون فى الصين إلى الشعبة الأولى من هذه العقيدة إذ إنهم يعتقدون فى وجود الله. أما الشعبة الثانية فنقوم على فكرة قتل شهوات النفس وعندما اعتنق قوبلاى خان هذه العقيدة زاد نفوذها كثيراً. ولمعرفة المزيد عن هذه العقيدة، راجع:

Turner Ralph, The Great Cultural Traditions, The Foundations of Civilization, vol. I, New York - London 1941, pp. 378 - 403.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 177 - 178 .

^(٢)

تقيماً للأوضاع الدينية بل والاجتماعية فى الصين الجنوبية ولكن إلى أى حد تطابق هذا التقييم مع الواقع التاريخى ؟

فالمسيحيون المشار إليهم قد يكونوا من النساطرة الذين انتشر مذهبهم الدينى منذ القرن السابع الميلادى وكانت بعض القبائل التركية قد تنصرت مثل : الأيغور، والجغتاي، والكرايت، وامتد نفوذ القبيلة الأولى فى وسط الصين وجنوبها حتى أواسط آسيا لما بعد عصر جنكيز خان^(١)، ولذا فيعتقد فى أن النصارى الذين قابلهم أودوريك كانوا ينتسبون لإحدى هذه القبائل. وثابت أن المدينة كانت تضم فى وسطها كنيسة عظيمة تحدث ابن بطوطة عنها طويلاً كانت تلعب دوراً اجتماعياً كبيراً بدعم من الأوقاف التى أوقفت عليها^(٢). أما المسلمون فكان لهم باع طويل فى جهات الصين الساحلية والغربية وسجل ابن خرداذبة فى القرن التاسع الميلادى قيام علاقات تجارية وثيقة بين المسلمين والصينيين حينما أشار إلى الطريق التجارى الواصل بين البصرة والصين حيث كان كثير من سفنهم يرسوا فى ميناء خنفو^(٣) (سونستالاي). وفيما يختص بالوثنيين معتنقى البوذية الذين تحسر المبشر لكونهم أهل العقيدة السائدة فقد وقفت عليهم المصادر الإسلامية فأفاض المسعودى فى الحديث عنهم وخلاصة ما ذكره أن ديانة أهل الصين لم تنحصر فى البوذية إذ إنها ديانة دخيلة (من الهند) وإضافة إلى ذلك فهم يعتقدون بالسماء والقوى السماوية وفى أرواح الآباء والأجداد فكانوا يعملون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة. وقال القزوينى عنهم : «دينهم عبادة الأوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات» ويؤكد ابن الوردي ذلك بقوله : «مذاهبهم مختلفة : مجوس، وأهل أوثان،

^(١) لويس شيخو اليسوعى : النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول، مجلة الشرق، العدد ١٦، ١٩١٣م،

ص ٧٥٦ - ٧٦٠.

^(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٥.

^(٣) ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص ٦٦.

وأهل نيران»^(١). وفي ذلك اظهار للبوذية على ما عداها من عقائد بدليل أن الخان كان معتقاً لها^(٢). وبعد غزو المغول للصين احتلظوا بطوائف المسلمين والمسيحيين واليهود وأظهروا التسامح في معاملتهم لهم ومنحوهم الحرية التامة ففى إقامة شعائرهم ضمناً لالتفافهم من حولهم^(٣). ومن ثم يتبين وضوح رؤية أودوريك لطوائف سونستلاى الدينية نظراً لاتفاقها مع الواقع الذى أقره المعاصرون، بل والدراسات الحديثة.

ومن الأشياء التى دعت هذا المبشر إلى إبداء دهشته، ما رآه من طيور ضخمة فى أثناء تجواله فى سوق سونستلاى، إذ ذكر أن الأوز هناك أكبر حجماً من مثيله فى العالم أجمع، بل هو الأفضل مذاقاً فالواحدة منها تبلغ ضعف حجم الأوزة فى البندقية : «أما الدجاج وبقية الطيور، فهى آية من الروعة والجمال أيضاً». هذا وقد اعتاد أهل سونستلاى اصطياد الثعابين الضخمة وأكلها، وكانوا يعدونها من أشهى أطعمتهم^(٤). وقد أكدت المصادر المعاصرة اشتهاار المدينة بأسواقها العظيمة كما أكدت على كبر حجم الطيور فجعلت الدجاجة الصينية أكبر من الأوزة المغربية، أما حجم الديك

(١) المسعودى : المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤ - ١١٠، القزوينى : المصدر السابق، ص ٢٣٥، ابن الوردى : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) : تمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى، جزء١، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٨م، ج ١، ص ٨٥. والملائية ديانة انتقلت من فارس إلى الصين حيث انتشرت فيها ولها مفاهيم خاصة حول فكرة التضاد فى الكون كالليل والنهار والغنى والفقر.. وفكرة التألم وكيف يتعرض إليه الجميع حتى الحيوانات، فالله عز وجل فى نظرها غنى عن تعذيب خلقه. انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين، ط ١ القاهرة، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م، ص ٦٩ - ٧٩.

(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 121 - 122.

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوى، القاهرة، د.ت. ص ١٩١.

(٤) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.178, Marco Polo, Op. Cit., p. 152.

فيعادل حجم النعامة^(١). ومن ناحية أخرى أشار أودوريك إلى أن نبات الزنجبيل ذو ثمن بخس للغاية وأنه كان يصنع منه المربي. كذلك فالأهالي هناك كانوا يصطادون نوعاً من الثعابين بغرض الطعام، حتى أنه يعد أفخم الوجبات طابطة هناك^(٢). وهكذا فمن المعتقد أن المبشر نجح في أن يسوق المادة التاريخية الكافية لتكوين فكرة ولو مبسطة عن مدينة سونستالاي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي.

مدينة زيتون :

توجه أودوريك في المرحلة التالية من رحلته التبشيرية شمالاً بشرق إلى مدينة أطلق عليها **زايفون** Zaycon التي ذكرها ماركو بولو من قبله بنحو ثلاثين عاماً باسم زيتون Zeiton وهي التسمية الأقرب إلى النطق العربي لها الوارد على لسان ابن بطوطة الزيتون^(٣) ولذا يفضل استخدام هذا الاسم وهو يتطابق مع مدينة توان - تشاو - فو أو تيوشان - تشو - فو Tchiuan - tchoufou حالياً^(٤). وذلك بعد إبحاره من سونستالاي (كانتون) في رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً. وبما لفت نظره في زيتون اتساع حجمها مقدرًا إياه بضعف حجم مدينة بولونيا Bologna الإيطالية، وكذلك تعدد الديانات بين أهلها؛ وبالغ في تقدير حجم المعابد حين ذكر أن الواحد منها يضم ثلاثة آلاف ناسك، ومجموع ما بها من أصنام أحد عشر ألف صنماً.

^(١) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٠، ٦٣٥.

^(٢) Matrod., H., Op. Cit., p. 108.

^(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 179, Marco Polo, Op. Cit., p. 254.

ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٢٩، ٦٣٤.

^(٤) Matrod, H., Op. Cit., p. 108.

ويضيف أن المدينة تقع في إقليم فو - كيان Fo - Kien في مواجهة جزيرة فرموزا Formosa وقد أحاطتها المياه من كل جانب تقريباً منذ عهد بعيد - وهذا يرجع إلى ما تعرضت له من ظروف طبيعية مختلفة الأمر الذي أدى إلى نزوح الأهالي منها بأعداد كبيرة، بيد أن الباحث : بدر الدين حى الصينى يرى أن الزيتون تطابق مدينة جوان شو الآن. انظر : بدر الدين حى الصينى : المرجع السابق، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وتحتوى المدينة على صورة مكررة من كل شيء فى العالم حتى يجد الإنسان فيها كل ما يحتاج إليه. وحدد موقعها عند مصب أحد الأنهار العظمى حيث تنشط حركة السفن^(١)، وقد تبين أنه ذلك النهر العظيم يانج-تسى الذى يرد أحياناً بمسمى كيانج Kiang حيث يكون شديد العمق وصالح للملاحة البحرية للسفن الضخمة. وإذا ما كان ذلك هو انطباع هذا المبشر عن المدينة فهناك أبعاد أكثر عمقاً أوضحها ماركو بولو فى رحلته حين وصفها حوالى عام ١٢٧٧م. بأنها فخمة وجميلة ويشتهر مرفأها بما يحتويه من سفن محملة بالبضائع التى توزع إلى داخل البلاد إضافة إلى سفن أخرى محملة بكميات هائلة من القفل المعد للتصدير إلى العرب. ويحتشد فى مينائها التجار حتى يصعب وصف كثرتهم فبدأ من أعظم موانئ العالم وأشدّها سعة ويسراً^(٢). وقد أكد الرحالة المسلمون المعاصرون أيضاً على أهمية الميناء من الناحية التجارية؛ وما قيل : «مراسها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها....» وأضاف هولاء بعداً آخرًا لأهمية المدينة لما ضمته من صناعات عديدة^(٣).

وفى زيتون كانت للراهب أودوريك وقفة للحديث عن أمور دينية؛ وما رواه عن العقيدة البوذية أنه حرص على أن يرى بنفسه طقساً اعتاد معتقوها على تأديته للأصنام يقضى بتقديم أطعمة ساخنة فى أطباق تُقرب إليها، وتتصاعد البخار إليها تكون عملية إشباعها قد تمت، وفى الواقع لم يشبهوهم وإنما أشبهوا أنفسهم لأنهم هم الذين التهموا هذا الطعام، أما فيما يخص المسيحية فقد اهتم بذكر أبنيتهم الواقعة فى المدينة وذلك على يد رائد الحركة التبشيرية فى الصين وهو جون دومون - كورفن Jean de Mont Corvin بداية من عام ١٢٩٣م.^(٤) كذلك أفاض أودوريك فى

Odorico Da Pordenone, Loc. Cit.

(١)

Marco Polo. Op. Cit., p. 254.

(٢)

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٤.

(٤) من المعتاد أن يذكر المبشر جون فى جميع الدراسات التى تتناول موضوع الإرساليات التبشيرية الفرنسية كاتبة إلى آسيا نظراً لجهوده الضخمة التى أهلته ليكون من أهم وأبرز العناصر الفعالة فى هذا المضمار. وتخلصت إحدى الدراسات إلى أنه ولد فى مونت كورفينو بالقرب من-

الحديث عن قصة شهداء مدينة تانا Tana التي وردت عنده بمسمى شانام Chanam. وكانت أحداثها قد شغلت حيزًا مهمًا مما قصه عن الهند ذاكراً أنه حمل رفات هولاء الشهداء لدفنهم بالدير الملحق بالكاتدرائية في زيتون^(١).

- ساليرنو الإيطالية حوالى عام ١٢٤٦م؛ وأنه خدم فى بلاط الإمبراطور الألماني. أرسل من قبل مقدم جماعة الفرنسيسكان بعد انضمامه إليها فى بعثة إلى الشرق عام ١٢٨٠م. بغرض التبشير فى فارس وأرمينيا وتعددت بعثاته حتى استقر فى الصين ويرى أحد الباحثين أنه برغم شهرته إلا أنه لم يُعرف إلا القليل عن أنشطته التبشيرية وكانت الإرساليات التى أشرف عليها من أوروبا إلى الصين بداية من العام المذكور، إضافة إلى المقبرة اللاتينية المدفون بها هناك قد عكست مدى جهود هذا الرجل فى هذه البلاد حتى أنه توفى بها عام ١٣٢٨م. وتضيف دراسة أخرى أن ضريحه تحول سريعاً إلى مكان يقصده المسيحيون بغرض التبرك به إذ أصبح قديماً فى نظرهم. وبشكل عام فهى شخصية محورية فى تاريخ عملية التنصير بين المغول وتكتسب أهمية خاصة بهذا البحث نظراً لمعاصرتة لبعثة أودوريك التى الدراسة بصدها، ولمعرفة المزيد انظر :

Moule, A.C., Christians in China Before the year 1550, London, 1930, p. 167, Morgan, D., Op. Cit., p. 131, Marcellin deCivezza, Histoire Universelle des Missions Franciscaines, Traduit de l'Italien par Victor Bernardin de Rouen, III vols, Paris, 1898, vol I, pp. 81 - 313.

Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 179.

^(١) تقع تانا على بحر زاباكي zabacy فى إحدى الجزر بالقرب من بومباى Bombay، ذكر أودوريك قصة شهدائها باستفاضة وهى تتلخص فى أن أربعة من الرهبان الفرنسيسكان ضلوا طريقهم البحرى بسبب الرياح فوصلوا إلى تانا فوجدوا بها خمسة عشر أسرة مسيحية أغلبهم من النساطرة وبرغم من أن المسلمين كانت لهم السيادة فإن أهل المدينة قد حافظوا على بوذيتهم، ونتيجة لخلاف عائلى بين الرجل المسيحي الذى استضافهم وزوجته تقدمت بشكوى إلى قاضى المدينة المسلم، فقام باستدعاء الشهود فكانوا ثلاثة من الرهبان ويسدو أن وجود هولاء بغير إذن أقلق السلطات الإسلامية فدخلوا فى مناظرة حول العقيدة وسرعان ما ظهر الاختلاف بل تطاول الرهبان على الإسلام، وهنا تجلّى الجانب الأسطورى فيما رواه أودوريك بأن قام المسلمون الناثرون بإيقاد النيران وإلقائهم فيها ولكنهم نجحوا منها ولذا كانوا جديرين بأن يحملوا لقب قديسين لكن سرعان ما دُبرت لهم مؤامرة أدت إلى قتلهم. أما الراهب الرابع فقد ألقى القبض عليه وخُبر بين الدخول فى الإسلام وبين القتل وحين رفض تم تزيينه، ويرجح أن أودوريك هو الذى جمع أشلائه، ولمعرفة التفاصيل. راجع :-

ثم استكمل المبشر روايته عن رفات ما دعاهم بشهداء تانا Tana فذكر أنه بينما كان في طريقه بجرّاً إلى زيتون صعد عدد من العسكر الإمبراطورى إلى السفينة وراحوا يتفقدون جنباتها المختلفة بحثاً عن أى شىء مخالف للقواعد. ولعذا قام بإخفاء تلك الرفات لعلمه بأنهم يعتقدون فى أنه حينما توجد عظام بشرية على ظهر سفينة، فتكون نذير شر مستطير عليها. وذكر أنه بالرغم من إمكانية العثور على هذه الرفات فإن الله لم يمكنهم من رؤيتها، وعليه فقد استطاع الراهب الوصول سائلاً فبادر بدفن رفات الشهداء فى كاتدرائية المدينة^(١) وبرغم غلبة السذاجة على هذه الرواية فإنها تعكس جانباً من الضوابط المتبعة فى أحد موانى الصين، الأمر الذى يعطى الرواية أهميتها إذ أبرز أودوريك حقيقة وجود موظفين يعملون لصالح الإمبراطور، قاموا بالإشراف على السفن التى تقصد ميناء زيتون. ولكن الصورة لا تبدو واضحة حين رسمها لنا الراهب فى حين نجد ماركو بولو قد استرسل فى تغطية هذا الجانب إذ تناول الجمارك والضرائب والضوابط السائدة فى هذا المرفأ الحيوى بالحديث، كما تناول ابن بطوطة المعاصر ذات الأمر بدقة فنقل لنا بعض ما تعرف عليه من هذه الضوابط؛ فالميناء يخضع تحت إشراف موظف كبير لقبه «صاحب البحر»، له عديد من المساعدين، يسجلون أسماء ركاب كل سفينة فى قوائم تحفظ. «وإذا ما عاد أجنك [السفينة] إلى الصين صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما كتبه بأشخاص الناس، فإن فقدوا أحداً مما قيده طلبوا صاحب الجنك به. فأما من يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك يحدث عليه، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك، أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلاً جميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه، ويجلس حفاظ الديوان [أى الموظفين] لمشاهدة ما عندهم، فإن عثروا على سلعة قد كُتبت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن، وذلك نوع من الظلم»^(٢).

=Ibid, pp. 158 - 171, CF. Also, Marcellin de Civezza, Op. Cit, vol I, pp.244 - 251.

Odorico, Da Pordenone., (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit. ^(١)

Marco Polo, Op. Cit., pp. 254 - 255. = ^(٢)

وحقيقة فإن هذه الوظيفة كانت قد عرفت فى الصين فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى باسم "زى به شى" أى مراقب التجارة البحرية، ومن واجباته : تفتيش مشحونات السفن وجمع الضرائب^(١) . ولعل العبارة والتفسير المذكور يساعدا على فهم أبعاد رواية أودوريك التى سيقى، وتوضح أن ما اتبعته السلطات من إجراءات فى أثناء تفتيش السفينة لم يكن المقصود منه البحث عن الرقات للتخلص منها، وإنما كان ذلك بمثابة تطبيق للنظم والقواعد المتبعة على ظهور السفن داخل الموانى واللافت للنظر هنا أن أودوريك لم يهتم كثيراً بإيراد مثل تلك التفاصيل فى رحلته وكأنه أراد أن يؤكد على تغليب البعد الدينى.

وبعد أن فرغ أودوريك من مهمته الأساسية الأولى فى زيتون، وهى دفن رقات زملائه المبشرين فى الكاتدرائية، نجده يتبع أسلوباً مخالفاً لما اتبعه فى سونستلاى حيث خرج للإقامة فى أحد الفنادق الصغرى فى زيتون وأخذ يصف الأشياء المحيطة بالفندق حيث حشرات الناموس والدواجن والخنازير والفلاحين أصحاب الشعر الأسود المشوب بالزرق وله بريق، كما تعرف على الذين قاموا باستضافته، فوصفهم بأنهم ذوى وجوه مستديرة وحواجب مقوسة^(٢) . وفى تلك الظروف شرع المبشر الفرانسيكانى فى استئناف عمله التبشيرى وسط هذا الخضم البشرى الوثنى بين أفراد الشعب الصينى الذى يحمل هذه الصفات.

وفى الواقع، لم تكن جهود أودوريك التبشيرية إلا امتداداً للجهود التى بذلتها الإرساليات التبشيرية السابقة عليه بإشراف من جون دومون - كورفن؛ فمن المنطق

= ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٢ .

(١) Chau Ju - Kua, On the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, ed. and trans. from The Chinese and Annotated by Friedrich Hirth and W.W. Rockhill, Amsterdam 1966, p. 20.

ويضم المصدر مادة تفصيلية عن النشاط التجارى للموانى الصينية خاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى زمن رحلة الملون.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed), Domenichelli, T., p. 179.

(٢)

عليه أن هذا الرائد الفرنسي سكانى باشر مهامه التبشيرية فى الصين منذ عقود ثلاثة تقريباً كمبعوث للبابوية التى حثت فى رسائلها خانات الصين على الدخول فى النصرانية، وحماية الرهبان الفرنسيين والدومينكان فى بلادهم ورعايتهم، والعمل على نشر الدين المسيحى بين رعاياها، الأمر الذى أضفى على هذا الاتصالات المهمة التى يقوم بها المبعوثون طابعاً دينياً بحتاً^(١). وكان جون دومون - كورقن أول راهب كاثولىكى يدخل الصين حيث قام بالتبشير بين المسيحيين الشرقيين (النساطرة) من أرمن وجورجيين ولم يكن قد خول له ترسيم رجال الدين بالصين، ولذا راسل البابا كليمنت الخامس (Clement V ١٣٠٥ - ١٣١٤ م.) فى هذا الشأن، فاستصدر مراسيم بتقليده رئيساً لأساقفة كامباليت ومنحه صلاحيات البطريرك فى جمل الصين المغولية وأرسل سبعة رهبان مبشرين لمعاونته لم يصل منهم سوى ثلاثة عام ١٣١٣ م. إذ قضى الآخرون نجهم فى الطريق، وكان أول ما اهتم به هو تأسيس أسقفية فى مدينة زيتون^(٢).

ويسلط أودوريك بعض الضوء على حركة التنصير فى زيتون، فكشف النقاب عن تشييد الكاتدرائية التى اتخذت أسقفية، وذكر أنه يرجع الفضل فى ذلك إلى إحدى النساء الأرمنييات التى أنفقت ثروة طائلة على إقامة المشروع هبة للكنيسة وكانت الكنيسة قد بلغت شهرة عريضة حتى وقف ابن بطوطة عليها طويلاً فى كتابه. ومن ناحية أخرى أشار أودوريك إلى المبشر الذى كان يدير الدعوة النصرانية قبله فى المدينة وهو الأخ بيريجران Fr. Périgrin وفضلاً عن ذلك نوه المبشر إلى أبرز معاصريه الذين تولوا العملية التبشيرية فى زيتون وكانوا يقيمون بها بشكل دائم، ولكنه اكتفى بذكر اثنين منهم وهما : الأخ جون Fr. Jean ولم يمدنا بلقبه، وكذلك الراهب عمانويل دو مونتيكيلو Emmanuel de Monticulo الذى ما لبث أن ارتقى فى السلك الكهنوتى وغدا يدعى بالأخ فونتيرا دو سارزانا Fr. Ventura de

(١) Moule, A.C., Op. Cit, pp. 168 - 171.

(٢) Matrod, H., Op. Cit, pp. 113 - 114, Moule, A.C., Op. Cit, pp. 183 - 191.

Sarezana^(١)، والمهم أن هذه المعلومات تدفع إلى الاعتقاد في أن أودوريك كان أحد الرهبان الذين دفع بهم مقدم جماعة الفرنسيسكان والبابا كليمنت الخامس إلى الصين بغرض دعم جهود جون دومون - كوفن وكانت مدينة الزيتون هي الساحة التي شهدت نشاطه التبشيري المذكور، كما يبدو أنه تزعم فريق العمل الفرنسيسكاني هناك.

ومن الإنجازات المهمة التي حققها أودوريك داخل زيتون تشييده دير يسع اثنين وعشرين راهباً ويضم أربع غرف واصفاً صومحته بأن «بهاءها فاق أكثر الصوامع بهاءً في بلدنا» ويقصد بها مقاطعة بوردنون في إيطاليا. ثم أتبع ذلك بتشييد كنيسة ملحقة به^(٢). وقد ثبت تاريخياً وجود هذا النشاط المعماري إذ سجل الأخ جون دو ماريجنولي Fr. Jean de Marignolli الذي جاء إلى زيتون حوالي منتصف القرن الرابع عشر وجود ثلاث كنائس «في غاية من الروعة تم تشييدها بشكل جيد فبدت للراعي فخرمة، عظيمة الثراء... وكانت إحداها قد أقيمت في منطقة تخص المسلمين، وكان ديرها يضم أبنية عديدة خاصة بالرهبان إضافة إلى عدد من المخازن التي يودع فيها التجار بضائعهم»^(٣). وهذه الإنجازات لا بد وأنها تطلبت مزيداً من جهود المبشر، الأمر الذي جعل أحد الرهبان الفرنسيسكان المحدثين المهتمين بدراسة شخصية أودوريك يذكر أنه لم يكن مجرد نقطة ماء ضائعة في خضم المجتمع الصيني، إذ غدا، وكأنه في وطنه نظراً لتحول هذا المجتمع إلى مجتمع فرنسيسكاني وأصبح أودوريك يمثل في حد ذاته حلقة مهمة في تاريخ الملحمة الفرنسيسكانية في الصين^(٤) ولا غرو في أن

(١) Odorico Da Pordenone (ed), Domenichelli, T., p. 179.

ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٠١ .

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T. Loc. Cit.

(٣) Marignolli, J., Account of his Mission, ed & trans. by Henry Yule :
Cathay and the way Thither, London, 1913, Vol III, p. 229, Cf. Also,
Matrod, H., Op. Cit., p.114, N. 41.

(٤) Wyngaert, Anastase van Den, O.F.M. : Jean de Mont - Corvin, O. F.
premier évêque de Khanbaliq (Pe - King), 1247 - 1328, l'île France, M.,
1924, p p. 37 - 40 .

هذا التقييم لشخصية المبشر غلب عليه التعاطف الشديد معه لما لقيه من عناء فى تلك البلاد الغريبة، والأمر المهم هنا أن هذا الراهب المحدث أعطى انطباعاً غير واقعى عن المجتمع فى زيتون، الذى كان يتألف غالبية المطلقة من عناصر غير مسيحية وهذا ما سيتبين لنا حجه لاحقاً، وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن أوهوريك نجح على ما يبدو فى تطوير مجتمع المسيحيين فى زيتون وجعل من كنيستها وأبنيتها الدينية مؤسسة فرنسيسكانية تعنى بأمور الدعوة والاضطلاع بدور اجتماعى بين مسيحي جنوبى الصين.

واستكمالاً للدور الذى لعبه هذا المبشر فى ميدان الدعوة بالتنصير، نجد أنه قد تعرض لبعض الظروف التى أحاطت بتجربته فى حقل العمل التبشيري هو وزملائه؛ فبداية زعم أنهم كانوا يرتادون المساجد لإلقاء المواعظ فيما بين المسلمين الذين كان من السهل التحدث بلغتهم^(١). وقبل الاسترسال فى هذا الحديث، فلى أى حد يمكن تقبل هذا الزعم؟، ففى حقيقة الأمر فمن الثابت أن كثيراً من بلاد الصين عرفت الإسلام منذ عهد بعيد، إذ أقيمت مساجد كبرى منذ القرن الثامن الميلادى فى مدن مثل كانج - آن العاصمة القديمة وسونستلاى وغيرها من المدن، وقد ساعد الاحتكاك التجارى على انتشار الإسلام بشكل أعمق فى الموانئ الساحلية أو المدن التجارية، وبعد تغلب المغول فى النصف الأول من القرن الثالث عشر على الصين وجد الإسلام فرصة سانحة للتوغل فى الولايات الداخلية^(٢). وكان ممن كتبوا عن الصين من المسلمين فى هذا العصر قد أكدوا على وجود مجتمعات إسلامية عريضة فى المدن الكبرى، وكانت زيتون من أبرز المدن التى ضمت مثل هذه المجتمعات بدليل أن حاكمها فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى مسلم، يدعى بهاء الدين قندزى^(٣).

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., P. 182.

(٢) بلر الدين حى الصينى : المرجع السابق، ص ٢٢٨، راجع أيضاً : محمد محمود زيتون : الصين

والعرب عبر التاريخ، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) للمذاتى : المصدر السابق، م ٢، ج ٢، ص ٢٧٩، راجع أيضاً : ابن بطوطة : المصدر السابق،

من ناحية أخرى، ناقشت، بعض الدراسات المتخصصة الحديثة قضية تصوير المجتمعات الإسلامية بصفة عامة ومدى الدور الذى لعبته الهيئات الرهبانية الأوربية، وحلصت إلى أن الحركة التبشيرية الفرنسيسكانية لم يكن لها باع فى محاولة تصوير المجتمعات الإسلامية حتى تلك التى فى إيطاليا (أى فى عقر دارهم). وكانت القيادات الزمنية هى التى تقف وراء التصدى للمسلمين داخل هذه المجتمعات فى الغرب وليس رجال الدين، ومن ثم كان الفكر السائد عند الكنيسة هو محاولة عزل المسلمين وإبعادهم بدلاً من تصويهم^(١). وعليه يكبرن من الصعب قبول وجود نشاط تبشيري فرنسيسكاني بين مسلمى الصين ودخل مساجدهم على الألف فى تلك الفترة المكورة على وجه الخصوص، نظراً لمكانتهم الرفيعة وأعدادهم الكبيرة. ولذا تركز هذا النشاط بين صفوف الشعب الصينى المغولى الوثنى، وهذا بالفعل ما أكد عليه أوهوريك سالفاً حين أشار إليهم بصفاتهم السلالية المعروفة.

ثم استأنف المبشر حديثه عن جهوده التبشيرية؛ فأكد على ما واجهه من صعوبة بالغة للوصول إلى عقول الأهالى من الوثنيين وأثنتهم بسبب حاجز اللغة إذ أن شطر اللغة الصينية التى يتحدثون بها يعتمد على الفنة ولذا فهى بعيدة للغاية عن اللغة اللاتينية، وبالفعل فاللغة الصينية تتألف من ثلاثمائة وأربعين مقطعاً أحادياً، ولكل نبرة صوت لدلولات لغوية عديدة. وهناك أربع علامات صوتية باستخدامها يتم تمييز اللفظة المقصودة وترتيب المقاطع فى الكلمة الواحدة له أهميته فى تحديدها^(٢). ولذا

^(١) Kedar, Z. B., Crusade and Mission European Approaches toward the Muslims, U.S.A., New Jersey, 1988, pp. 145, 175.

Turner, Ralph, Op. Cit., Vol. II, p. 828.

^(٢)

اللغة السائدة فى بلاد الصين زمن الرحلة تدعى تيو - يو - هان Tú - yū - hun أو لغة تيو-هان Tú - hun ينطق بها قوم يحملون الاسم ذاته والتي تأثرت بعدة لغات محلية أخرى وبحلول القرن السادس الميلادى أصبح لها التفوق عما دونها من لغات، خاصة فى مقاطعة كوكو - نور Ku Ku - Nor (شينغهاي Chinghai) وفى القرن العاشر الميلادى امتزجت تماماً باللغة المغولية، ولمعرفة المزيد، راجع:

Wittfogel, K. A., and Chia - Shāng, Fāng, Op. Cit., p. 105.

يضيف أودوريك قائلاً : «إن الأوربي الذي يتعامل باللغة الصينية مدة تبلغ عشرين عاماً لم يصل إلا لمرحلة التلعثم فى النطق بها، الأمر الذى لا يمكنه من الوصول إلى مستوى التعرف على معنى الكلمات والأفكار». ولما كان كبير سن الدعوة يحول دون إتقان هذه اللغة، فكان لزاماً عليهم التعامل بإحدى اللغتين المعروفتين لديهم (لعلهما الفارسية والعربية) وينقل صاحب هذه الرحلة التبشيرية عن لسان سابقه الأخ بيريجران فى هذا الصدد قوله : «لو قدر لنا أن نعبّر بلغتهم، لكننا حققنا المعجزات فى التبشير»^(١). وهذه العبارة توحى بأن الرجلين تقابلا بحيث أفاد أودوريك من حيرة سابقه بيريجران فى الدعوة؛ فقد تنبه أودوريك إلى عائق عدم معرفة المبشرين بلغة أهل البلاد، ولكن فى الواقع كانت هناك مشكلة إضافية مثلت عائقاً أمام تلك الحركة، ذلك أن الدستور المغولى المعروف باسم (ياسا Yassa) أو الياساق-وهو يحمل العديد من المسميات الأخرى-الذى كان جنكيز خان قد جمعه ووضعه حرصاً على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها وذلك فى عام ١٢٠٦م. قد حظر على المغولى التعصب للمذهب دىنى^(٢). وعلى أية حال أوضح أودوريك على هذا النحو بعض ملامح الأداء فى العمل التبشيرى ومنها أن المبشرين تنقلوا من مكان إلى آخر لنشر الدعوة فى زيتون إنطلاقاً من أبنيتهم الدينية هناك، كما بين أن اللغة التى استخدمها مسلمو زيتون تختلف عن اللغة الصينية وأنه كان على علم بها ولذا فلعلها تكون هى اللغة الفارسية التى كانت سائدة بين التجار. وفضلاً عن ذلك بجدده وقد وضع يده على بعض المشكلات التى

^(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 83.

^(٢) القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة ١٣٣٦ هـ، ج٤، ص ٣١٠-٣١٢، السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٦٠-٦٢، فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، بيروت ١٩٨٠م. ج١، ص ٣٣٨-٣٥٢، محمود سعيد عمران: المغول وأوروبا، الإسكندرية ١٩٩٧م. ص ٣٦-٣٧. وقد تناولت دراسة حديثة عوامل إضافية أخرى أعاققت انتشار الكاثوليكية فى الصين وغيرها من البلاد المغولية. راجع ذلك فى: عادل هلال : المرجع السابق، ص ١٩٨-٢٠٢.

تواجه عملية التبشير في الشرق، لعله أحاط البابوية بها عند عودته لتلافيها، ومنها الجهل بلغة الأهالي، وكبر سن المبشرين.

وجاءت سنوات العمل في زيتون إلى نهايتها إذ كان على أودوريك أن يغادرها لاستئناف مهمته ولكن في مكان آخر. فمن الواضح أن العملية التبشيرية في العاصمة الإمبراطورية كامباليت قد هددتها الأخطار بسبب تقلص أعداد الأساقفة معاونين لأكبرهم درجة في الصين وهو مطرانها جون دومون كورفن. وكان الوصول إلى كامباليت يتطلب من أودوريك المرور بأقاليم عديدة في الصين والكثير من الطرق والأنهار والجسور والقنوات لكنه لم يقف عليها طويلاً بالوصف. وكانت أولى المدن التي مرَّ بها في الإقليم الجنوبي تلك التي ذكرها بمسمى سيشو ^(١) sucho وهي على الأرجح فو- تشو Fou-Tcheu الواقعة في منطقة فو- تشيان Fou-Tchian ^(٢)، بيد أنه اكتفى بالإشارة إلى ضخامة حجمها فقدر مساحتها بثلاثين ميلاً* وثروتها الداجنة العظيمة، وقد ذكرت هذه المدينة في المصادر الإسلامية بمسمى فوجو على أنها من المدن الهامة المتنافسة لمدينة الزيتون، وأن بها مجتمعاً إسلامياً. ^(٣) وبعد مسيرة أودوريك ثمانية عشر يوماً ذكر أنه وصل إلى جبل عتيد اختلف الباحثون في تحديده فذكر أحدهم أنه تيو- جيو- هنج Tu-Ju-Hing وسجل البشر عن أهل المنطقة ظاهرتين: فساوهم المتزوجات يميزن أنفسهن بأن تضع كل منهن إناء به بعض قرون البهائم دون غير المتزوجات، أما الظاهرة الثانية، فالأهالي يقومون بتصنيف شعرهم بطريقة غريبة ^(٤)،

(١) Odorico Da Pordenonne, (ed.), Domenichelli, T., pp. 179-180

(٢) Matrod, H., Op. Cit., p115.

* يلاحظ أن الميل الصيني يعادل ثلاثة أمان الميل الإيطالي.

(٣) الهمداني: المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٤) Odorico Da Pordenone, Loc. Cit

حدد الراهب مارسولان دو سيفيزا موقع الجبل المذكور بأنه يفصل بين إقليم كيانج-سي =

وما يتعلق بالظاهرة الأولى لا يمكن تفسيره إلا إذا تم الاستناد إلى ما ورد عن ماركو بولو الذى أشار إلى أن الرعاة كانوا يصنعون من القرون الكبيرة مغارف وأوعية يحفظون فيها أطعمتهم^(١)، ومن ثم قد يكون حمل النساء لها رموزاً لدخولهن الحياة الزوجية.

وبعد مدة مماثلة قطعها أودوريك فى الطريق وصل إلى مدينة كبرى تحتضن نهراً عظيماً لم يذكر اسميهما، غير أن الراهب هنرى كورديه يرجح أنه يانج - تسي وهناك قابل أودوريك رجلاً قام باستضافته فى بيته الواقع عند رأس الجسر الذى كان يربط بين شطرى المدينة عبر النهر.^(٢)

ومن الواضح أن علاقة أودوريك بمضيفه قد توطدت حتى أنه أقام معه فترة تمكن خلالها من اصطحابه فى رحلات للصيد، فقدم لنا صورة واضحة لفنون الصيد فى الصين فترة العصور الوسطى، وما رواه أنهما توجهتا إلى النهر واستقلا مركباً صغيراً، وكان الرجل قد أحضر مجموعة من الطيور المدربة على الصيد. وتقوم الفكرة على أساس ربط عنق كل منها بعد حرمانها فترة كافية من الطعام بحيث لا يسمح لها بالتهايم ما تلتقطه من أسماك، وبشكل تلقائى تقوم بصيدها فى السلال الثلاثة الموضوعية فى بداية منتصف وموخرة المركب. وكان من المدهش أنه سرعان ما امتلأت السلال بالأسماك وحينئذ قام الرجل بحل الخيط وترك الطيور على أعنتها كى تلتقط ما يحلو لها من أسماك، وعندما يتم لها ما تريد تعود بشكل تلقائى أيضاً إلى القفص الذى انطلقت منه ويتم إغلاقه.^(٣) وقد وردت إشارات فى المصادر المعاصرة

= Kiang-Si، وإقليم فر-كيان Fo-Kien بينما عرفه الراهب ماترود بأنه هو جبل نونشان Nanchan، أى جبل الجنوب. انظر:

Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, p. 283, Matrod, H., Loc.Cit.

Marco Polo. Op. Cit., p.66. (١)

يضيف ذات المصدر فى هذا الصدد أن هذه القرون كانت لحيوانات برية وبخاصة الشياه ذات الحجم الكبير مقدرًا طول القرن بأنه قد يبلغ ثلاثة أو أربعة أشبار وأحياناً ستة أشبار.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185. (٢)

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 180. (٣)

يفهم منها أن الطيور المستخدمة فى عملية الصيد تلك كانت من نوع السنابير والبيزاة والصقور والنسور المدربة، وعادة ما كانت تستخدم عند ضفاف الأنهار^(١). والثابت أن هذه الطيور قد بلغت درجة عالية من إتقان أداء مهامها بدليل أنها كانت تقدم هدية حملها السفراء من قبل الخان المغولى إلى السلاطين وقد حُلبت إليه من بلاد الخنطاب^(٢) حيث الصين الشمالية.

خاض أودوريك تجربة ثانية اكتفى بتحديد موقعها بأنه على بعد بضعة أيام من المكان السابق يعتقد البعض أنه عند ذات النهر يانج-تسى ولكن فى اتجاه أقرب إلى منبعه^(٣)، والتجربة فى هذه المرة تعتمد على الصيد اليدوى، ذلك ان الصيادين كانوا يجهزون مركبهم بوعاء كبير به ماء ساخن ويتزعمون ملابسهم تمامًا للغوص فى المياه الباردة وقد ربطوا حول الرقبة سلة يُعتقد أنها بمثابة شبكة ليضعوا بها ما يتمكنوا صيده من أسماك، ثم يصعد الواحد منهم بعد فترة إلى المركب ليضع صيده ويغوص فى الماء الساخن، وتتم هذه العملية بالتناوب فيما بينهم بحيث يقضى كل منهم فترة قدرها أودوريك بثمن الساعة^(٤)، وتسجل المراجع الحديثة هذه الظاهرة موضحة أن فريق العمل كان فى العادة يضم أربعة صيادين يضعون الشباك حول الخصر، يغوص الواحد منهم لمدة حوالى نصف ساعة ثلاث مرات وكانت العملية تتم فى العادة خلال موسم انخفاض الحرارة، حينما تتجمد الطبقة العليا من المياه أى فى أواخر الخريف والشتاء. والجدير بالذكر أن بعض القبائل خاصة الشيتان Ch'i-Tan منها هى التى اهتمت بعمليات صيد الأسماك تلك، فى حين لم يظهر المغول اهتمامًا بهذه العمليات برغم شغف جنكيز خان بها منذ حوالى القرن^(٥) وبذلك يتبين أن المبشر سجل بطريقة وافية

Marco Polo, Op. Cit., p. 147

(١)

(٢) الهمداني: المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٤٦.

Matrod, H., Op. Cit., p. 116-117.

(٣)

Odorico Da Fondenone, (ed.), Domenichelli, T., Lcc. Cit.

(٤)

Wittfogel, K. A., and, Chia - shâng, Fêng, Op. Cit, p. 120.

(٥)

بعضًا من أساليب الصيد لدى الصينيين ميرزا ما وصفت إنيه قريحة هذا الشعب من مستوى مرتفع في القدرة على استغلال البيئة بالشكل الأمثل.

مدينة أهامزان :

وكانت المحطة التالية في رحلة أودوريك هي مدينة أطلق عليها اسم **أهامزان** Ahamsane^(١) ولعلها هي ذات المدينة التي وردت في المصادر الإسلامية حاملة مسمى حمدان^(٢) وكذلك عينكساي أو الخنسا^(٣)، وقد أكد الباحثون أنها مدينة كينزاي Quinsai القديمة التي كان ماركو بولو قد زارها مرارًا وذكرها بهذا المسمى. وفي القرن الخامس عشر الميلادي، تغير اسمها وحتى وقتنا الحالي إلى هان تشو - فو Han - Tchéou-fou وتُنطق أيضًا هانج - تشو Hang - Tcheou وهي أكبر مدن الصين الجنوبية^(٤)، وتقع على نهر يانج - تسي العظيم ومن الجلي أن أودوريك نبههم بجمال المدينة وضخامتها إذ ذكر عنها أنها «أفضل وأنبل وأضخم مدينة في العالم أجمع»، وقد وصفها أهلها بأنها "المدينة السماوية"، ثم أوضح أنها «مقامة على أرض سهلية منخفضة مثل مدينة البندقية حيث تتخللها البحيرات والأنهار». ثم أورد اسم إحدى هذه البحيرات فدعاها سي - هو Si - hou^(٥) وذكر عنها أنها أضفت طابعًا مميزًا على المدينة فظهرت وكأنها عبارة عن عديد من الجزر الصغيرة ربط فيما بينها أنثى

(١) Marco Da Pordenone, (ed.) Domenichelli, T., p. 181.

(٢) الإدريسي : المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٢، ٢٧٩، ٢٧٣، ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ٦٣٩.

(٤) Marco Polo, Op. Cit, p. 231. cf. also, Marcellin deCivezza, Op. Cit, vol I, p. 284, Matrod, H., Op. Cit, p. 117.

(٥) اسمها يعنى : البحيرة الغربية لوقوعها في الجانب الغربي من المدينة، وهي إن تكن غير ذات شأن من حيث الاتساع، إذ يبلغ قطرها : ثلاثة أو أربعة أميال فإنها شهيرة عند الرحالة الذين وصفوها بسبب جمال ما يحيط بها من مناظر والشفافية العجيبة لمياهها. راجع : ماركو بولو : المصدر السابق، الترجمة العربية، ص ٢٥٢، ج ٤.

عشر ألف جسرًا حجريًا عليها حراس، فشابهت مدينة البندقية أيضًا في بهاتها بل إنها تملك ضعف الجمال الذي في العالم وحدها، أما عن حجمها فذكر أنها تعد أضخم مدن العالم إذ بلغ محيطها مائة ميل. ومع ذلك فليس بها أى جزءٍ خالٍ من السكان بل هناك مناطق بلغت فيها الكثافة السكانية أعلى معدل لها. ثم انتقل أودوريك في وصفه للتحديث عن بوابات المدينة فأشار إلى أنها بلغت اثنتى عشر بوابة وعلى امتداد نحو ثمانية أميال من كل بوابة ينتشر العمران كضواحي في شكل مدن تفوق الواحدة منها مدينة البندقية أو مدينة بادوا Padua فى حجمها وتحتوى المناطق المحيطة بالمدينة الرئيسية على شبكة متصلة من الطرق الجيدة حتى أن المسافر قد يسير مدة ستة أو سبعة أيام بدون أن يشعر بالمسافة التى قطعها نظرًا لأنه يمر بشكل مستمر وسط المدن والمنازل. وما لبث أن أنهى أودوريك هذا الوصف بقوله : «إننى لم أحرر على أن أكتب عنها [أهمزان] بهذا الشكل إلا عندما وجدت فى البندقية أناسًا عديدين قاموا بزيارة هذه المدينة من قبل»^(١).

إن هذه الصورة الرائعة التى رسمها أودوريك لمدينة أهمزان لا تبدو واضحة ودقيقة إلا بمضاهاتها بأبرز ما أورده بعض معاصريه عنها؛ فمن السابقين عليه من أبدى انبهاره بعظمتها وفخامتها مشيرًا أيضًا إلى مسمى المدينة السماوية وإلى تفوقها على ما عداها من مدن العالم بما تمتعت به من امتياز وشهرة «فضلاً عن مباحجها الوفيرة التى قد تدفع ساكنها أن يظن فى أنه مقيم فى الفردوس» وحدد محيطها بمائة ميل ووصف ميادينها وشوارعها وقنواتها بشدة الاتساع وذهب إلى مدى أكبر فى وصف أبنية المدينة ودفاعاتها ونشاطها التجارى والصناعى ومشمولاتها الأخرى وضواحيها.^(٢) ومن اللاحقين من أكد على كبر المدينة فعدها أيضًا أكبر مدن الأرض، فقدار طولها بمسيرة ثلاثة أيام، واعتقد فى أنها تنقسم إلى ست مدن مزدحمة بالسكان لكل واحدة منها سور ويضمهم جميعًا سور واحد. وقد سكن المدينة الأولى حاكمها وكثير من الحراس،

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., Loc. Cit.

(١)

Marco Polo, Op. Cit., pp. 231- 239.

(٢)

وفى الثانية سكن اليهود والنصارى وعبدة الشمس مع أميرهم الصينى، أما الثالثة فيها عدد كبير من المسلمين ومسجد جامع وزوايا وأسواق. وكانت الوابعة تضم دار الإمارة حيث الأمير الكبير وعبده وخدامه إضافة إلى ميناء نهري نشيط للحركة وبعض الصناعات، وهى أحسن المدن الست، وكانت الخامسة «يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الخذاق بالصنائع..». أما المدينة السادسة فيسكنها الحرفيون، مثل : البحارة والصيادون والتجارون، فضلاً عن بعض فئات العسكر. ويتفق ذات المصدر مع أودوريك فى جانب مما أورده عن طرق المدينة، غير أن شهادته تشمل بلاد الصين بعامة إذ قال فيها، هى : «أمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها»^(١). وبذلك تطرق المبشر ولو بطريقة غير شمولية إلى حقيقة ما نعمت به الطرق من أمن السدى كان يعم طريق الحرير إلى الصين وداخلها وفقاً لما عرف بفترة السلام المغولى Pax Mongolica التى عاصرها، إذ امتدت ما بين عامى ١٢٦٠-١٣٦٨م.

هكذا يبدو وصف أودوريك المعبر لمدينة أهامزان وقد شأبه بعض المبالغة وعدم وضوح الرويا أحياناً، ولكن الصورة التى رسمها معاصروه لذات المدينة ربما تكون قد أوضحت بعض الأمور، فقد تعامل أودوريك فى وصفه للمدينة على أنها مدينة واحدة ولذا قدر عدد جسورها بهذا الرقم الضخم (اثنى عشر ألف جسراً) فى حين أنها كانت تضم مدناً أو ضواحي أخرى، بينما قدرها معاصر آخر بـست مدن. ومن ناحية أخرى اتفق أودوريك مع معاصريه فى وصف حجم المدينة بأنها أكبر مدن العالم وفى التأكيد على حسناتها واتساعها وكثرة قنواتها وأهمية مينائها، واتفق معهم كذلك على ما أحاط المسافرين على الطرق من أمن ويسر فى الحركة. وهذه الأمور مجتمعة تدفع إلى الاطمئنان إلى ما ساقه من معلومات. وبرغم أنه كان صادقاً ودقيقاً بصفة عامة فى تقديم وصفه، فإن مادته لم تكن كافية لتغطية بعض الجوانب فى حين انفراد

^(١) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦١٦، ٦٣٢، ٦٣٩-٦٤٢.

باعطاء بعض المعلومات التي ضمن معاصروه بها مثل الحديث عن الطرق والمسافات بين ضواحي المدينة ويواباتها.

وبعد التعرف على وصف مدينة أهامزان شرح أودوريك النظام الضرائبي الذي عرفته المدينة؛ إذ كانت تجتمع عشرة أو اثنتى عشرة أسرة فى مكان واحد للتحايل بغرض دفع ضريبة واحدة، وكان الحاكم يحصل مبلغاً يقدر بخمسة وثمانين تومانا Tuman (من العملة المعروفة باسم باليس التي سيعترض لها المشر فى موضع لاحق)، أما حين تضاف المبالغ المقرر تحصيلها من المسلمين فتبلغ تسع وثمانون تومانا. وهذه لفظة مغولية تطلق على فرقة عسكرية مكونة من عشرة آلاف رجل، ومن ثم تبلغ عوائد الضريبة الإجمالية ثمانمائة وتسعين ألفاً، هذا إضافة إلى ما يتم تحصيله من الأسر المسيحية بل ومن التجار وعابرى طرق المدينة. ثم تطرق المشر بعد ذلك إلى الحديث عن وفرة الطعام فى المدينة من الأرز ولحم الخنزير والخبز إضافة إلى نوع من الخمور يعرف باسم بيجنى Bigni والذي يعد مشروب النبلاء، ويتم صنعه بتخمير الأرز.^(١) وهذه المعلومة سجلتها المصادر الإسلامية قبل قرابة الخمسة قرون؛ إذ أشار أحدها إلى أن العديد من الصناعات فى الصين قامت على محصول الأرز مثل الخسل والنبيد،^(٢) وبذلك تضمنت رواية المشر عن مدينة أهامزان معلومات اقتصادية مهمة شملت الضرائب وبعض المنتجات الغذائية إضافة إلى أنه أبرز المسلمين كشريجة يمكن تمييزها بين أهل المدينة.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 180.

(١)

وعن لفظة تومان، راجع: فواد عبد المعطى الصياد: المرجع السابق، ص ٣٦١.
(٢) سليمان السيرافى: (كتب عام ٥٢٣٦هـ / ١١٤١م).: سلسلة التواريخ، نشرة لا مجلس ١٨١١م، ج ١، ص ٤. راجع أيضاً: بدر الدين حى الصينى: المرجع السابق، ص ٩٠، ١٢٩. وما يذكر أن سليمان السيرافى سافر إلى الصين بصفته تاجراً مراراً عن طريق البحر، فجاء فى كتابه بمعارف لم يسبقه إليها أحد، وفى أغلب الأحوال كانت أقرب إلى الحقيقة. انظر نفس المرجع، ص ٤٦-٤٧. ولعرفة المزيد راجع: نقولا زيادة: الرحالة العرب، القاهرة، ١٩٥٦م.

ووفقاً لما ذكره صاحب هذه الإرسالية التبشيرية فإن أكثر شىء أسعده فى مدينة أهامزان التقاؤه بفريق العمل التبشيرى هناك وهو يتألف من ثلاثة زهبان يتسمون فى الأصل إلى دير الإخوة غير الراشدين فى سونستالاي (كانتون)، وكأثوا قد أحرزوا بعض النجاح فى دعوتهم، والدليل على ذلك هذا الرجل الذى اكتسبوه إلى عقيدتهم إذ وصفه أودوريك بأنه رفيع الشأن بين قومه حيث قام باستضافته فترة مكوته فى أهامزان ونوه إلى أنه حاز محبة واحترام هذا الرجل له؛ إذ عادة ما كان يدعو بلقب آنا Atha^(١). وبمراجعة المصادر للتعرف على مدلول هذا اللقب تبين أن «الشيخوخ بالصين يعظمون تعظيماً كثيراً، ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد»^(٢). وهذه الإشارة تشير بطبيعة الحال إلى ما وصل إليه أودوريك من كبر فى السن وشيخوخة جعلته جديراً بحمل اللقب.

أما عن جهود أودوريك التبشيرية فى أهامزان فقد اقتربت بملازمة تلك الشخصية الجديدة له، ففضلاً عن أنه استضافه فقد ذلل له مشكلة عدم إتقان لغة الأهالى نظراً لاختلاف اللهجات، كما أمده بالمعلومات التى كان من المستحيل التعرف عليها والتى سوف تكون سبباً فى الكشف عن بعض الجوانب الروحية بين أفراد المجتمع هناك؛ إذ روى المبشر أنه خرج فى رفقة هذا الرجل وتجول فى المنطقة الواقعة فى غربى بحيرة سى-هو، وسجل ملاحظته بأنها تعج بالمعابد البوذية التى كان أشهرها معبد المعزل الروحى La Retraite Spirituelle المعروف باسم ثيبى Thebe حيث الصحرة التى جلبها فيضان النهر إليه وكان بداخلها كهف عُرف لدى الأهالى بكهف القردة، وهذا المسمى له دلالة لدى المعتقدين بالبوذية؛ إذ أنه يرمز إلى قصة ذلك الرجل السورج الذى اعتاد أن يقوم بإطلاق صفارته فتجتمع إليه جميع قردة المنطقة فيتولى إطعامها. وقد شاع أن بالكهف بحر سفلى يصل إلى أفند.^(٣)

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 182.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٤٠.

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 182.

وما لبث أن تطرق أودوريك إلى رواية أخرى تتلخص فى أنه حينما اصططحبه مضيفه إلى ذلك المعبد عرفه بشىء آخر مميّز ذلك المكان ألا وهو ظاهرة استتساخ الأرواح اعتقد أودوريك فى أنها كانت أرواح للرهبان المسيحيين المبجلين. وفى قصته أن المضيف قدمه إلى رجل آخر ذاكراً أنه قدّم إلى هذه البلاد من أجل سلامة روح الإمبراطور، وطلب منه أن يريه ألواناً من أعاجيبه، وحينئذ تقدم الرجل ومعه إنثتين من الفضة مملوئتين بالطعام، وقرع آلة خشبية قد تكون الطبلبة بالعصا فتقاطرت عليه أعداداً كبيرة من الحيوانات بلغت حوالى الثلاثة آلاف كان معظمها من القرود كما كانت تشبه الآدميين، وعندما قام الرجل بتقديم الطعام وقرع آله مرة أخرى رتبوا أنفسهم فى نظام حسب نبالة أصولهم التى كانوا عليها فى الحياة الدنيا. وقد رفض الإجابة على أسئلة أودوريك والتحاور معه فى هذا الشأن، فكان ذلك دليله على أن هذا الشعب ليس لديه استعداد لاطلاع الغرباء على أسرارهم، ثم ختم حديثه عن أهامزان قائلاً: «إذا أراد شخص الكتابة عن حوارق هذه المدينة لتطلب منه تلوين كتاب ضخماً»^(١).

لا شك أن العبارات السالفة انطوت على معلومات مهمة يمكن استقراؤها، فهى تؤكد على اختلاف اللهجات وتعددتها فى المجتمع الصينى، وهذا أمر طبيعى لاتساع رقعة البلاد وتعدد الأجناس. وكان الإصطخرى سابقاً فى تسجيل هذه الملاحظة فى القرن العاشر الميلادى بقوله: «ولملكة الصين السنة مختلفة»^(٢). أما ماركو بولو القريب زمنياً من فترة هذه الدراسة فيؤكد أيضاً هذه الحقيقة حين أشار إلى أن إحدى الولايات كانت تتحدث لغة عامة واحدة وتسودها طريقة كتابة مشتركة واحدة موضحاً أنه يوجد اختلاف فى اللهجات بمختلف أجزاء البلاد يشبه ذلك الاختلاف الواقع بين اللهجة الجنوبية والميلانية والفلورنسية ولهجات المقاطعات الإيطالية الأخرى التى يمكن لسكانها التفاهم فيما بينهم وإن كان لكل لغة الحديث

Odorico Da Pordenone, Loc. Cit.

(١)

(٢) الإصطخرى: المصدر السابق، ص ١٠.

الخاصة بها.^(١)

ومن ناحية أخرى فبرغم ما قد يحيط رواية أودوريك فيما يتعلق بالنواحي العقائدية لدى البوذيين من شعور القارئ بتغلب الخوارق عليها إلا أنها تنطوى على عقيدة مرتبطة بالتراث القديم، فقد ورد لدى ماركو بولو حين حديثه عن ديانة هذا الشعب أنهم يعتقدون في أن الروح خالدة فإذا ما توفى شخص فسرعان ما تدخل روحه جسماً آخرًا، وأنه تبعًا لمسلك الفضيلة أو الشر الذى اتبعه فى حياته ستكون حالته فى المستقبل نحو الأفضل أو الأسوأ؛ فإذا كان الرجل فقيرًا وحسنت سيرته تعاد ولادته فى بداية جديدة من رحم سيدة كريمة ويصبح هو نفسه سيدًا كريمًا، وفى مرحلة ثانية يولد من رحم سيدة نبيلة ويصبح نبيلًا، وهكذا ترتقى مرتبته حتى يتحد والإله. أما على العكس فإذا كان فى حياته ابنًا لسيد كريم وساء سلوكه فينحط به الأمر بأن يبعث فلاحًا ويتضاءل قدره ليصل به الأمر بأن يصبح كلبًا^(٢). وفى الواقع فهذه العقيدة ما هى إلا منهج التناسخ الهندوسى الذى دخل الصين مع عقيدة بوذا التى انتشرت بين شعوبها بداية من القرن الرابع الميلادى^(٣). وكان الرحالة المسلمون قد سجلوا انتشار هذه العقيدة فى الصين بدليل أن كانت «لهم بيوت للعبادات»^(٤) وتشهد سلسلة المعابد البوذية الكبرى التى شيدت بداية من القرن العاشر الميلادى على أن البوذية كانت لها الصدارة بين الأهالى.^(٥) والجدير بالذكر أن هذا الفكر لا يزال ماثلاً فى العقل والوجدان، وقد برهن الصينيون على ذلك إذ اهتموا بتشييد معبد فخيم أسفل معبد المعزل الروحى يضم رسومات ضخمة للجن والآلهة السفلية، وذلك فى العشرينات من القرن الحالى، وقد حرص المعمارى المنفذ على الالتزام بالطراز الصينى

Marco Polo, Op. Cit., p. 255. (١)

Marco Polo, Op. Cit., p. 175. (٢)

Wittfogel, K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p.291. (٣)

(٤) القزوينى : المصدر السابق، ص ٥٣.

-Wittfogel, K.A.,and Chia-Shêng, Fêng, Op.Cit., p.p.291, 297-303 (٥)

التقديم فى البناء فقام بطلاء الأعمدة باللون الأحمر. وما يجدر ذكره أن هناك محر سفلى يربط هذا المعبد بمعبد بامبو السماوى Bambou Céleste عادة ما يكون مكتظاً بالمسولين من العميان^(١). وعليه نجد تفسيراً لوجود سرداب نقل أودوريك عن أهل الصين أنه يمتد إلى الهند.

وها هو البشر الفرنسيسكانى يستأنف إمداده لنا بفيض مادته الحضارية عن المجتمع الصينى فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر الميلادى، وفى هذا الموضع ينقل لنا رؤيته لقصر امتلكه أحد الأثرياء، ولم يشر إلى موقع هذا القصر تحديداً مكتفياً بأنه فى مكان قريب من أهامزان (هانج-تشو) أى فى الصين الجنوبية. وأول ما تعرض له وصفه للحياة اليومية لهذا الثرى إذ كانت تقوم على خدمته خمسون فتاة، رتبين بحيث يقدمن له الطعام فى وجباته زمراً؛ وذلك بأن تتقدم مجموعة تتألف من خمس منهن وقد حملن الأطباق إلى المائدة وتستبدلن بخمس أخريات، وسرعان ما تقوم المجموعة الأولى بإطعامه فى فمه فى جو مفعم بالغناء. ثم تأتى المجموعة الثانية وهى تحمل أطباقاً أخرى لإطعامه وسط نوعية مختلفة من الأغاني، وهكذا.. وهذه المشاهد تتكرر بشكل يومية مع تغيير فى الألحان والأغاني. ويقدر أودوريك ثروة هذا الرجل بما يعادل ثلاثمائة ألف حوال من الأرز، يبلغ وزن الواحد منها ما لم يقدر على حمله إلا حمار قوى. ثم انتقل إلى وصف القصر بأنه يبلغ ميلين طولاً، أما أرضيته فنصف بلاطها من ذهب والنصف الآخر من فضة. وفى وسط ساحة القصر يوجد تمثال صنع كذلك من ذهب وفضة، وهو يشبه التماثيل التى فى الأديرة^(٢). وهكذا كان لمحصل الأرز مكانته بين الصينيين؛ فمنذ القرن التاسع الميلادى كان الأرز يعد الغذاء الرئيسى لعموم الشعب^(٣). ولا شك أن هذه الذكريات التى ظلت عالقة فى ذهن البشر الفرنسيسكانى تعكس جانباً مما كانت عليه الطبقة الغنية من ثراء، كما تؤكد على أهمية محصول الأرز بالنسبة

^(١) Mabel Craff Deering, The National Geographic Magazine, Washington,

Jun, 1927, p. 647.

^(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenicheili, T., P. 182.

^(٣) سليمان السيرافى: المصدر السابق، ج ١، ص ٤.

للصينيين منذ العصور الوسطى وحتى الآن كما هو معروف، حتى أنه أصبح يستخدم لتقييم ثروة البعض.

مدينة شيلفو :

وبعد الفترة التي مكثها هذا الرائد الفرنسي سكانى فى أهامزان قطع رحلة تبلغ ستة أيام سيراً فبلغ مدينة دعاها **شيلفو Chilefo**^(١)، ذكر بعض الرهبان المهتمين بدراسة حياة أودوريك أنه من الصعب إقرانها بأحد المسميات الحديثة لكنها ربما تكون هى مدينة كوى-سونج-فو Cui-Song-Feu حالياً^(٢) وكان ماركو بولو قد تناولها فى رحلاته مطلقاً عليها نانغين Nanghin أو نانكين Nan King فى حين وردت عند رشيد الدين الهمذانى برسمين متشابهين، ثمكين، ثمكينك^(٣). وقد تحدث أودوريك عنها فوصفها بأنها مدينة ضخمة تبلغ مساحتها أربعين ميلاً، وبها عدد من الجسور يقدر بثلاثمائة وستين جسراً من أجمل جسور العالم. والمدينة محاطة بالأسوار وكانت المقر الأول للملك جنوب الصين فى مملكة سانزى. وبمجرد الخروج من المدينة، وصل أودوريك إلى نهر ضخيم ذكره باسم نهر شنای Chanay أو تنای Tanay، وهذه أول إشارة صريحة إلى النهر المعروف حالياً باسم يانج - تسى، وهناك لفتت أنظاره المراعى الواسعة للأبقار والأغنام^(٤). وجاء فى وصف الهمذانى لها أن محيطها بلغ أربعين فرسخاً كما أن لها ثلاثة أبراج ويجرى فى وسطها نهر عظيم. وفى موضع آخر يذكر المؤرخ ذاته أن ملوك الخطا اتخذوا من المدينة عاصمة للمكهم قديماً^(٥). وهكذا يمكن أن نخلص من هذين الوصفين بأن المدينة كانت من المدن المهمة حتى زمن الإرسالية، كما

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 183.

(٢) Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol. I, p. 286; Matrod,H., Op.Cit., p. 125.

(٣) Marco Polo, Op. Cit., p. 224.

الهمذانى: المصدر السابق، ٢٢، ج٢، ص٣٨، ٢٤٥، ٢٧٩.

(٤) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 183; Marcellin de Civezza, Op.Cit., vol I, p. 286.

(٥) الهمذانى: المصدر السابق، ٢٢، ج٢، ص٣٨، ٢٧٩.

أن وجوه الأبراج الثلاثة يعدد دليلًا على أنها كانت محاطة بالأسوار مصدقة لما أورده
أودوريك في هذا الصدد. أما الثبائن في أنها كانت عاصمة لكل من مملكة مانزى
ومملكة الخطا فيمكن إقرار المعلومة التى أتى بها كل من المبشر الفرنسيسكانى والمؤرخ
المسلم نظرًا لامتداد المدينة على ضفتى النهر الفاصل بين هاتين المملكتين القديمتين.

مدينة يمزاي :

وكان نهر اليانج - تسي قد أتاح أمام أودوريك فرصة الرحيل من مدينة
شيلفو ليحترق أرضًا سكنتها سلالة قزمية (المقصود هضبة منغوليا) حيث استلهم الكثير
من الخرافات والأساطير فى الحديث عن تسلقهم للأشجار وبعض عاداتهم الغريبة، ثم
وصل مدينة وردت عنده باسم **يمزاي** ^(١) **Iamzai** وقد اعتقد أحد الباحثين من
الرهبان فى أنها هى ذات المدينة التى ذُكرت عند ماركو بولو تحت اسم آخر هو
ينجوى **Yanguai** التى تدعى حاليًا يانج-تسو **Yang-Tcheu** التى تولى حكمها من
قبل قوبيلاي خان مدة ثلاث سنوات. وفى الواقع فمدينة يمزاي هى ذاتها تلك المدينة
التي ذكرها ماركو بولو بمسمى شان-شيان-فو **Chan-Chian-Fu** وزارها فى أثناء
رحلته ^(٢). وهذا يتبين من خلال تشابه وصفه لها مع وصف أودوريك.

ومما سجله أودوريك عن مدينة يمزاي أنها من المدن النبيلة، مقدرًا ما تضمه
من سكان بما يتراوح بين ثمانية وأربعين تومانا وثمانية وخمسين تومانا، وعليه يقدر
سكانها بنحو نصف المليون نسمة. ثم أضاف أن دخل حاكم هذه المدينة من إنتاج
الملح قد يصل نحو الخمسة ملايين باليس **Balis** وهى عملة ورقية تشبه الحرير تعدل
واحد ونصف فلورين **Florin**، غير أنه كان يكتفى بدخول يقدر بمليونى باليس فقط

^(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 184.

حدد الراهب هنرى ماترو صفة سكان المدينة بأنهم من الأقزام، مضيفًا أن الخرافات والأساطير ربما
يكون أودوريك قد استلهمها من روايات كتاب ألف ليلة وليلة. ولمعرفة المزيد راجع

Matrod, H., Op. Cit., p. 173, N. 49.

Marco Polo, Op. Cit., p. 223; Matrod, H., Op. Cit., p. 126.

^(٢)

كنوع من التخفيف عن كاهل الأهالي^(١). وسأستكشف في أن عملة الفلورنسا القديمة إلى حد كبير؛ إذ استخدم كاتبها لغة الأرقام، ويلاحظ عدم معرفة العصور لرقم المليون. وبما يسجل له أيضًا أنه قدم الوسيلة التي يمكن بها تقدير قيمة السلع من خلال موازنته بين قيمة عملة البالييس وعملة الفلورين الذهبية التي اتخذتها فلورنسا الإيطالية في عام ١٢٥٢م. عملة لها تحت اسم *Ducati gigliati* ثم عرفت بعد ذلك باسم فلورن.^(٢)

أما عن عملة البالييس الورقية التي أشار إليها أودوريك، فالثابت أن الصين عرفت أوراق النقد الحكومية حوالي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قبل أن تُعرف في أي بلد آخر في العالم^(٣). وإلى جانب ذلك ظل الصينيون يستخدمون العملات الذهبية والفضية في كثير من الأقاليم، ولكن النقود الورقية انتشر استخدامها بعد الغزو المغولي في كثير من البلاد حين قام أوكيتاي *Ogedei* (١٢٢٩-١٢٤١م) بإنشاء دار لسك النقود الورقية في كامباليت أسوة بالدور القائمة في بعض المدن الأخرى^(٤). وهذه الظاهرة الحضارية كانت قد شددت انتباه ماركو بولو إليها فسجل في أكثر من موضع بعض الجهات التي سادها التعامل بالعملات الورقية، وكان من أبرزها مدينة أهامزان والمناطق الواقعة بالقرب منها^(٥). وانتقل استخدام العملات

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 184.

(٢) ظهرت عملة الفلورين حاملة علامة زهرة الزنبق الفلورنسية تمييزًا لها عن العملة القديمة. انظر: عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة أحمد خاكي، ط٢، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) محمد زكي شافعي: مقدمة في النقود والبنوك، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٦، راجع أيضًا: فؤاد عبد المعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الأيلخانيين، أسرة هولاكو خان، الدوحة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ٢١١-٢١٤.

(٤) Wittfogel, K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p. 664.

(٥) Marco Polo, Op. Cit., pp. 159-161.

ولحسن الحظ عرفنا ماركو بولو بطريقة صنعها، إذ كان الخان يأمر بنزع لحاء أشجار التوت، =

الورقية في بلاد مغولية أخرى حيث بلاد فارس. بموسم صمدى ١٢٩٤م. /
جمادى الآخرة ٦٩٣هـ. يقضى بالتعامل بعملة ورقية تدعى "الجوا"^(١)، وأدرك ابن
بطوطة المعاصر لأودوريك أن بيع وشراء أهل الصين كان يتم باستخدام قطع كاغذ
(ورق) «كل قطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس
والعشرين قطعة منها بالشت»^(٢). وهكذا يتفق الرحالة المغربي مع أودوريك فيما
ذكره تقريباً وبدى التقارب بينهما فى تسمية العملة الورقية، إلا أن أودوريك لم يكن
أول من سجل هذه الظاهرة عن بلاد الصين، بينما يعتبر أول الغربيين الذين ذكروا اسم
هذه العملة المتداولة هناك.

وإضافة إلى تلك المعلومات المدققة يضيف المبشر تفاصيل أخرى، إذ تطرق
إلى ظاهرة وجود ضيافات (نزل) فخمة تقدم أطعمة أفضل من تلك التى تقدم فى
منزل الأهالى إلى الحد الذى يفخر معه المتردد عليها أمام ضيوفه. وعلى المضيف أن
يحدد نوعية الطعام وعدد الذين سيضمهم الجمع ودفن التكاليف مسبقاً ليتم تجهيز
اللازم. كذلك شاهد أودوريك عددًا كبيراً من السفن^(٣) التى تجوب مياه نهر

= وتؤخذ منها القشرة الداخلى الرقيقة التى تقع بين اليابس وخشب الشجرة ثم تقطع هذه القشرة
وتدق فى هاون حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق الذى يماثل فى مادته الورق المصنوع
من القطن، وبعد ما يصبح الورق معاداً للاستعمال يتم قطعه إلى أحجام مختلفة شبة مربعة، وكان
لكل حجم قيمة ثابتة لعملة أخرى أجنبية وتعطى هذه العملة الورقية شرعيتها بيسنن الأشكال
والرسوم ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع أسمائهم وأختتامهم على هذه العملة، فإذا صادرت،
هذه العملة على الطريقة السابقة يتولى تغيير الموظفين المشرفين من السلطان الأعظم - عثمها بالانتم
الملكى المارجرود فى حيازته. وعلى هذه الصورة تكون العملة الورقية أصبحت معدة للتداول.
وكان يعد تزوير هذه العملة جريمة عقوبتها الإعدام.

(١) الهمدانى: جامع التواريخ، تاريخ هولاكسو، مقدمة كاترمير، القاهرة، ١٩٦٠م، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠-٦٣١. وجليد بالذكر أن الرحالة أورد الكلمة برسم
كاغذ، بينما سجلتها المعاجم كما هو مبين أعلى

(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 184.

اليانج - تسمى.

بيد أن أهم ما لفت نظر المبشر في يمزاى، تلك الكنائس النسطورية الثلاث إضافة إلى دير فرنسيسكاني للرهبان غير الراشدين الذى كان يستخدم قاعدةً للتبشير فى المدينة، كذلك فالدير يعد آخر مركز لهذه الطائفة لمن يأتى من الجنوب قاصداً العاصمة كامبالت^(١). وقد ورد عند ماركو بولو أن المدينة كان يحكمها رجل نسطورى المذهب، وكان هذا الأمر قد فسر لديه إقامة الكنائس الثلاث المذكورة على المذهب ذاته، وحدد تاريخ تشييدها بعام ١٢٧٨م.^(٢). وبالتالي فالدير يُعد إضافةً على تلك الأبنية.

وعلى كلى فقد استدل أحد الباحثين الرهبان على ما تقدم بأن الولايات الصينية الشمالية كانت مكتظة بالأديرة الفرنسيسكانية بحيث أشعت بنورها لتضيئ جميع أرجاء الصين. ولذا كان المبشرون سعداء بما أنجزوه فى مهمتهم فى الدعوة^(٣). وفى الواقع تكاد المصادر المعاصرة والمراجع تجمع على أن الديانات الأخرى عدا العقيدة البوذية لم يكن لها وضع يذكر فى منطقة شمالى الصين^(٤)، وعليه، لا نجد فيما ذكره أودوريك -وماركو بولو من قبله- من أبنية مسيحية ما يكفى ليبرهن هذا الباحث على كثرتها وانتشارها على هذا النحو الذى صوره بشكل مبالغ فيه، خاصة وأنه قصر ذلك على معتقى العقيدة الكاثوليكية الفرنسيسكانية.

وهكذا تعددت الإشارات ذات الأهمية التى خصص بها أودوريك مدينة يمزاى؛ إذ أعطى تقديراً لعدد سكان المدينة، الأمر الذى لم نلاحظه حين حديثه عن المدن الأخرى فى الصين. كما أبرز أهمية صناعة الملح وإلى حد كان انتاجه يعود بهذا الدخل الكبير على صاحبها. ونظراً لارتباط شخص الحاكم بهذه الثروة الطائلة فهذا

Ibid, Loc. Cit.

Marco Polo, Op. Cit., pp. 228 - 229.

Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, p. 286.

^(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٢، ٦٤٤؛ لويس شيخو اليسوعى: المرجع السابق، ص ٧٥٦.

يعطينا انطباعاً عن الوضع السياسى فى البلاد، حيث ظهرت الطبقة الارستقراطية على أنها الطبقة الحاكمة من العنصر المغولى. ومن ناحية أخرى كان أودوريك واضحاً حين حدد قيمة عملة الباليس الورقية. غير أنه تصور خطأ أن المدينة تحتوى على ضيافات أو نزل تستقبل الزوار وضيوفهم، وفى حقيقة الأمر ما كانت هذه إلا مطاعم تجارية، ويبدو أنه لم يكن فى إيطاليا مطاعم بهذا الشكل، ولذا لم يتعرف على طبيعتها. وأخيراً تشير كثرة السفن المارة فى النهر إلى قيام المدينة بدور تجارى ما. أما كنائسها فتعد دليلاً على أنها كانت أحد مراكز التبشير الكاثوليكي.

المدن على الطريق إلى حاضرة المغول فى الصين:

وبعد أن غادر أودوريك مدينة يمزاي شق طريقه تجاه منبع نهر يانجتسى حيث الغرب، ولمسافة قدرها عشرة أميال دخل مدينة أطلق عليها اسم **موفزيسو Menzu** التى لم يستدل على ما يطابقها من مسميات حديثة. وكان كل ما ذكره عنها أن ميناءها يحتوى على أفضل السفن بل وأكثر السفن عددًا التى يمكن أن يضمها ميناء فى العالم، وكل الحاويات كما رآها بيضاء مثل الثلج إذ تغطى بطلاء أبيض، أما السفن فعلى متنها يوجد صالات ومطاعم وعدد من وسائل الراحة الأخرى تم تنسيقها بشكل مبهج للغاية حتى أنه لا يوجد له مثل فى أى مكان آخر^(١). وهذا الوصف للمدينة يوحي بأنها كانت من المدن الضخمة والمهمة فى زمن الرحلة، وأنها كانت من الموانى الرئيسية على نهر يانج-تسى الكبير.

وفى المرحلة التالية من الرحلة وصل المبشر إلى مدينة أخرى بلغها بعد مسيرة ثمانية أيام ذكرها باسم **لوكوي Lencui** لم يذكر عنها سوى أنها مدينة عظيمة المساحة، وهى تطل على نهر قاراموران **Caramoran** الكبير^(٢) الشهير باسم هوانج-هو **Hoang-Ho** أى النهر الأصفر باللغة الصينية والنهر الأسود بالمغولية ومنبعه من التبت وكشمير، ولحسن الحظ ورد ذكر المدينة من قبل عند ماركو بولو الذى دعاها

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 184, 185

(١)

Ibid, Loc. Cit.

(٢)

لينجوى Lingui. وموقع المدينة، وكذلك اسمها يوحيان بأنها مدينة لينج-تشينج-
Ling-Tching حاليًا فى مقاطعة شان-تونج Chan-Tong. ولعل أبرز ما أفادنا به
هذا التاجر المرتحل عن المدينة بخاصة والمنطقة بعامة أنهما نشطتا فى مجال التجارة بفضل
الحركة الملاحية فى هذا النهر الواسع^(١). ومن ثم يتبين أن الاتجاه الدينى لدى أودوريك
يغلب عليه أحيانًا بالقدر الذى يجعله لا يهتم بالوقوف عند الحديث عن الاتجاهات
الأخرى لدى الشعوب التى جاب بلادها من تجارة وزراعة وصناعة وباقى الأنشطة.
فى حين أن ماركو بولو لم تفوته تلك الوقفات فراح يسترسل فى وصفها بصفته تاجرًا.
ثم سلك الميثر الفرنسيسكانى طريقه عبر نهر قاراموران نحو المصب أى فى
اتجاه الشرق، واستغرقت رحلته بضعة أيام حتى بلغ مدينة دعاها **سسنزيماتو**
Sunzumato، التى ذكرها ماركو بولو باسم سنجوى ماتو Singui-Matu أما
التسمية الحديثة لها فهى لين-تسين-تشو Lin-Tsin-Cheu وكان أودوريك قد
سجل عنها أنها تضم سوقًا رائجة اشتهرت بالتخصص فى تجارة الحرير ومنتجاته^(٢).
وكان العرب قد عرفوا وجود هذه الصناعة فى بلاد الصين منذ أمد فيقول الإدريسي:
«بها طور [أى بلاد] كثيرة مشهورة، ومعمل الحرير الصينى الرفيع القسمة، المحكم
الصنعة الذى لا يقارن به غيره...» ولذا اشتهرت ممالكها القديمة بانفرادها بصناعة الحرير
وتصديره إلى سائر العالم، وكان أهلها أكثر الناس لبسًا للحرير^(٣). أما ماركو بولو
فقد سجل عنها قوله: «هى مدينة فخمة وضحمة وجميلة، غنية بما فيها من بضائع
وتجارة وصناعات، وجميع سكانها من الوثنيين، ويتبعون الختان الأعظم ويستخدمون

Marco Polo, Op. Cit., pp. 216-217. (١)

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 185. (٢)

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦٦؛ بدر الدين حى الصينى: المرجع السابق، ص ٩٠، يضيف
ابن بطوطة عن الحرير قوله: «والحرير عندهم كثير جدًا، لأن الدود يتعلق بالثمار ويأكل منها،
فلا يحتاج إلى كثير من المونة، ولذلك كثر، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولولا التجار لما
كانت له قيمة، ويباع العرب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير.» انظر: رحلة
ابن بطوطة، ص ٦٣٠.

العملة الورقية.» وهى تظل على نهر بلغت أعداد السفن فيه من الكثرة ما يجعلها بعيدة عن التصديق^(١). ويمكن تحديد هذا النهر بأنه نهر اللوين Louin البالغ النشاط فى حركة النقل التجارى، الأمر الذى جعلها مدينة صناعية تجارية كبرى، فتأهلت لكى تلعب دورًا اقتصاديًا نشطًا.

أما الأمر الآخر الذى شد انتباه أودوريك فى مدينة سنزيماتو فهو عيس النواحي الجغرافية، حيث لاحظ ارتفاع كثافة السكان الهائلة بها إلى الحد الذى جعله يقول: «إن عدد السكان بالمدينة لم أر له مثيلاً فى أى مدينة أخرى مرتت بها، فتساءلت من أين أتت كل تلك الجحافل البشرية؟، فجاءت الإجابة بأن نقاء الجو والمقومات الطبيعية للمدينة من الجودة بمكان جعلت الأهالى لا يموتون إلا بمرض الشيخوخة، وما دون ذلك فهم قلة». غير أن أحد التجار المرتحلين المسلمين سجل الملاحظة ذاتها قبل ذلك بحوالى خمسة قرون، إذ قال: «بلاد الصين أنزه وأحسن، وأصح وأقل أمراضاً وأطيب هواءً، لا يكاد يرى بها أعمى، ولا أعور ولا من به عاهة» كما لاحظ القزوينى الظاهرة ذاتها فقال عن إحدى جهات الصين «لا يرى بها ذو عاهة من صحة هوائها وعذوبة مائها وطيب تربتها.... وأقلها أمراضاً»^(٢). حين مقارنتها بجهات أخرى وهكذا أطلق هذا الزائر حكمه على مجمل الصين فى الوقت الذى خص أودوريك مدينة سنزيماتو بملاحظته.

على أية حال يبدو أن الوقت لم يمهل المبشر أودوريك كى ينجز بنجاح ما فى هذه المدينة سنزيماتو فى مجال التبشير؛ فخرج منها بلا نصير إذ اعتدنا منه أنه فى حالة إحراز أى نجاح فى الدعوة أن يقوم بتسجيل ذلك والإشارة إلى الأبنية المسيحية أو الرهبان المبشرين، ولما كان سابقه ماركو بولو فى زيارة المنطقة قد قطع بعدم وجود

Marco Polo, Op. Cit., pp. 215-216.

(١)

ورد فى جامع التواريخ أن أهل الصين كانوا «يسمون الموانى الساحلية ماتو» ومن ثم فحينما تضاف هذه اللفظة على الموانى النهرية فإنها تشير إلى كونها مكان تجارى يقيم فيه التجار للراحة وتلجأ إليه السفن وتجى فيه رسوم الخان. انظر: الهمذانى: المصدر السابق، ٢م، ج٢، ص ٢٧٥.

(٢) سليمان السيرافى: المصدر السابق، ج١، ص ٤٥٨ القزوينى: المصدر السابق، ص ٥٠.

مسيحين نساطرة أو غيرهم فييلو أن ذلك كان عائقاً أمام الدعوة الفرنسييسكانية بصفتها غريبة تماماً على فكر هذا المجتمع البشرى.

مدينة كامباليت (بكين) :

كانت المحطة الأخيرة لصاحب هذه الإرسالية في الصين هي مدينة **بكين** التى ذكرها بمسمى **كامباليت Cambalet** التى عجت وقت ارتحاله إليها بالمتناقضات؛ إذ كان الجزء الجنوبي من المدينة وهو ما يعتقد فى أنه أول ما رآه أودوريك بها عبارة عن ساحة واسعة مليئة بالحطام والأطلال، وسرعان ما تكشف له أن معظم الأجزاء الأخرى تعانى هي أيضاً من كثرة الأتربة والغبار العالق بالجوى الذى قد يسبب الاختناق حين تهب الرياح. أما المنطقة المحيطة مباشرة بالمدينة فهى سهلية وغير حيوية وتنتشر بها المراعى ويعيش أهلها بلا أمان، وأحياء المدينة بنيت من طين وآجر. وفى ذات الوقت فالمدينة فى نظره عريقة ونبيلة وتشتمل على عدد من القصور الفخمة وسط يساتينها النضرة، وتمتد أطرافها لتشمل مساحة شاسعة وتحيط بها الأسوار العالية بامتداد أربعين ميلاً تتخللها اثنتا عشرة بوابة، ثلاث منها فى اتجاه الجنوب^(١)، وهى : العدالة-الجميلة Belle-Justice، الثقافة-العالية Haute-Culture، الخليفة السعيدة^(٢) Heureuse-Succession. وحديث بالذكر أن كلاً من أودوريك

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185; Cf also Matrod,^(١) H., Op. Cit., p. 127., N.50.

Oswald Siren, The Walls and Gates of Peking, London,1926, pp. 15-33.^(٢)

ويضيف الباحث نفسه أسماء ثمانية بوابات للمدينة إلى ما ذكره من أسماء للبوابات الجنوبية وهى فى الشرق بوابات: الرأفة الغالية Chérie Bienveillance، التأثير الرقيق Douce Influence، والعظمة المجددة Glorieux Eclat، وفى الغرب بوابات: الحق المتوازن Juste Harmonieux، الطهارة الرسمية Solennelle Pureté، والقانون الصحيح Loi، أما فى الشمال بوابتى: الطهارة الوديعة Pureté Pacifique والفضيلة الجسورة Vigoureuse Vertue

والهمذاني اتفقا على أن جنكيز خان الذى غزا المدينة قام بتخريب أجزاء منها، لكن قوبيلاي اتخذها عاصمة لدولته نظراً لتوسطها البلاد العامرة، وقد اختار موقعاً قريباً من المدينة مستعيناً بالمنحمن والحكماء، لينشئ في مدينة جديدة أسماها تايدو Taydo أو "دايدو" اتصلت بمدينة كامباليت وأحاطهما بالأسوار المنيعه المرتفعة ثم امتد العمل فى عمارتها حتى عهد ابنه الخان تيمور أولجاتيو^(١) Temur Oljeitu (١٢٩٤-١٣٠٧م). وكان جون دومون كورفن قد ذكر أن أعداد بوابات المدينة إحدى عشرة بوابة وعليه فرمما كانت البوابة المختلف عليها فيما بين هذين المبشرين قد أضيفت فى فترة العشرين عاماً تقريباً التى فصلت بين وصول كليهما إلى كامباليت^(٢). وعامة يفهم من وصف أودوريك للمدينة أنها شهدت تطوراً كبيراً فى مجال العمارة على يد المغول الذين دللوا على تفوقهم فى إنجاز الكثير من المشاريع الضخمة.

كانت كامباليت وقت إرساله أودوريك مقراً شتوياً للإمبراطور المغولى فى الصين حيث كان يقيم بها بصفة أساسية فى الفترة من ديسمبر حتى فبراير أما خلال فصل الصيف من يونيو حتى أغسطس فعادة ما كان ينتقل إلى مدينة سانلو Sando الجبلية حيث المناخ الرائع فى ذلك الفصل. ووردت المدينة عند ماركو بولو بمسمى شانلو Shandu وهى الآن مدينة شانتو Shang Tu التى أرجع فضل بنائها إلى قوبيلاي خان^(٣). وهكذا نجد شبه اتفاق بين الأوربيين فى ذكر المسمى، بيد أن أودوريك كان محددًا حين سجل معلوماته مؤكداً على ظاهرة اتخاذ حكام المغول مشاتى ومصايف لهم، وهى الظاهرة المسجلة فى بعض المصادر الأخرى إذ ورد عند الهمذاني أن قوبيلاي خان جعل من مدينة كيمين فو مصيفاً له وحدد موقعها على بعد

^(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 185.

الهمذاني : المصدر السابق، ٢م، ج٢، ص ٢٧١.

^(٢) C.F. Marcellin deCivezza., Op. Cit., Vol. I, p. 155.

^(٣) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T.,P. 188; Marco Polo, Op. Cit., p.105

خمسين فرسخاً من العاصمة ربطت فيما بينهما ثلاثة طرق^(١)، وبرغم عدم تشابه اسمي المصيف فيبدو أنهما يشيران إلى موقع واحد.

ويرى الباحث أن أودوريك سعى إلى الوصول إلى المقر الصيفي للخان وتمكن من ذلك بالفعل، وهذا يتبين من خلال وصفه الدقيق لأبنية ساندر بالرغم من أنه لم يكشف صراحة عن ذهابه إلى هذا المتجمع. وحسبما أورد فإنه كان يصف أبنية كامبالت، وما يبرهن على وقوعه في ليس -وربما كان اللبس بفعل النساخ- وصفه لأحد قصور ساندر بدقة. وما ذكره عنه أن ملكيته ترجع إلى مواطن إيطالي ثرى يدعى بيتو لوكالونجو Pito Lecallongo أشار إليه في موضع آخر بأنه رافق جون دو مون كورفن في قسم من رحلته إلى الصين عام ١٢٩٣ م. والقصر مقام وسط أرض تم رفعها عن مستوى سطح الأرض المجاورة بارتفاع قديمين وتحيط به الأشجار بكثافة حتى عُرف المكان باسم الجبل الأخضر، وعند المنحدر تم حفر بحيرة واسعة يخترقها جسرٌ واستخدمت البحيرة والأرض المحيطة كمستعمرة مفتوحة يجتمع فيها البسط والأوز والجمع والأسماك إضافة إلى الدواجن، يأتي إليها صاحب القصر بل والإمبراطور بغرض الصيد إذ لا تكون هناك حاجة للذئاب إلى الغابة لذلك الغرض^(٢). وعندما تحدث الهمداني عن نشاط قويلاي خان في مجال المعمار تعرض إلى تشييده قصر بالقرب من مصيف كيمين فو حيث تم ردم بحيرة صغيرة بالحصي والآجر المفتت وصب عليها القصدير والرصاص وجعل ارتفاعها عن الأرض بقدر قامة رجل، ولما كانت المياه محتبسة في جوف الأرض تسربت إلى الجوانب الأخرى، فتفجرت عيوناً، وعلى المرتفع أقيم قصر على الطراز الخطائي وأحيط بالأسوار وجمع حوله أنواع من طيور الصيد، وعلى بعد رمية سهم تم إنشاء قصر أصغر ربط بالقصر الأول. بممر خاص، وكان قويلاي خان يقيم في القصر الخارجي الأصغر، أما ماركو بولو الذي كان له السبق

Ibid, p. 128.

(١)

راجع أيضاً: الهمداني: المصدر السابق، ٢م، ٢ج، ص ٢٧٠-٢٧٣.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 185,188.

(٢)

فى وصف قصر الخان بالقرب من سانلو فقد أبدى إعجابه الشديد بفخامة البناء وامتداده الشاسع وتكويناته ومشملاته^(١).

وباستعراض الروايات المختلفة نجد أن أوضحتها رواية الهمدانى الذى حدد وجود قصرين امتلك قوبيلاي خان الأصغر منهما، فأتاح لنا فرصة تصديق أودوريك فى إنساب القصر الأكبر إلى التاجر الإيطالى. كما يتضح أن كليهما يتفق بشكل واضح فى وصف المعالم الرئيسية للقصر، فى حين لم تتفق معالم القصر الفخم الذى صورته ماركو بولو مع ما ورد لدى المبشر والوزير المسلم فى هذا الشأن، وقد يرجع ذلك إلى أن ماركو لم يعاصر إنشاء القصر الأكبر فاقصر وصفه على القصر الأسبق فى البناء نظرًا لتدوين الروايتين الأخرتين فى مرحلة قريبة تالية. وعلى ذلك فإذا ما سلمنا بما ورد عند المبشر والوزير المسلم نجد الفرصة متاحة للأخذ برواية الهمدانى فيما يختص بسكن الخان للقصر الخارجى (الأصغر) والأخذ برواية أودوريك من أن الخان الذى لم يذكر اسمه كان يتردد على التاجر الإيطالى لزيارته فى قصره الكبير المحاور وذلك عبر جسر ربط بين القصرين يمر من فوق ماء كما أشار كلاهما. ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون القصر الكبير قد امتلكه التاجر الإيطالى وأن الخان كان يذهب إليه بحكم صداقة ربطت فيما بينهما بغرض الخروج معًا للصيد. وما ينبغى التنبه إليه أن الخان المقصود فى هذا الوقت لم يكن قوبيلاي نظرًا لأنه قضى نفيه فى عام ١٢٩٤م حين شرع التاجر صاحب القصر الكبير فى مشاريعه الإنشائية، وبالتالى يعتقد فى أن الخان تيمور أولجاتيو هو الذى كان صاحب تلك العلاقة الطيبة مع الإيطاليين: جون دو مون كورفن ورفيقه بيتو.

وفى ما أورده أودوريك من وصف إجمالى للمدينة فمادته عنها يشوبها بعض من التداخل والاضطراب، غير أنه بتصنيف تلك المادة تم تحديد ثلاثة اتجاهات أساسية وهى: ما يتعلق بالدعوة التبشيرية الفرنسيسكانية والقواعد التى انطلقت منها

^(١) الهمدانى: المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٧٤.

فى المدينة ومدى ما وصلت إليه من نجاح. أما الاتجاه الثانى فهو يتعلق بأدوات الحكم المعقود عليها أمل البابوية لتنفيذ المخطط التبشيرى المتمثلة فى القصر الإمبراطورى والإدارة والجيش. ولا غرو فهذين الأمرين مكملين بعضهما الآخر كما سيتضح لنا فى الصفحات التالية. أما الاتجاه الثالث فهو منصب على إبراز خلاصة جهود أودوريك التبشيرية مما استوجب منه الاحتكاك بالمجتمع ومن ثم التعرض لبعض عادات وتقاليد الشعب الصينى.

ففيما يتعلق باتجاه العمل التبشيرى والظروف المحيطة به تحدث أودوريك عما أسفرت عنه الجهود السابقة عليه فى هذا المضمار وقد تمحضت عن ثلاثة كنائس تخص الرهبان المبشرين غير الراشدين كانت واحدة منها قد شيدها الأرمن^(١) (النساطرة) ولم يتحدث المبشر عن الظروف التى أحاطت بتحول هذه الكنيسة عن مذهبها الأصيل، بيد أن هذه الظروف تتكشف لنا حينما نعلم أنه فى حوالى عام ١٢٩٣م عندما وصل مبشر الصين الأكبر جون دو مون كورفن من قبل بابا روما إلى كامبالييت تصدى له النسطرة واضطهدوه وأرادوا الإيقاع به مع الخان المغولى واتهموه بالكذب والنصب ولم يُبرأ من هذه التهم إلا بعد محاكمة عُقدت له اكتسب بعدها عطف الخان، وأمر بنفى المتآمرين وذويهم^(٢)، ويبدو أن هذه الواقعة كانت نقطة تحول لصالح الدعوة الفرنسيسكانية ومؤشر ذلك تحول العقيدة فى هذه الكنيسة النسطورية إلى الكاثوليكية. أما عن الكنيسة التالية فقد جاء الحديث عنها فى إطار التعرض إلى قصة تشييد الدير فى كامبالييت حيث حدد أودوريك موقعه فيما بين بوابة الثقافة العليا والقصر الإمبراطورى، وهو بذلك يقع فى المنطقة الجنوبية من المدينة. كما تناول الظروف التى أحاطت بأعمال البناء؛ فذكر أن المبنى أقيم فى وسط قطعة كبيرة من الأرض كان قد اشتراها بيتو لوكالونجو التاجر الإيطالى الثرى الذى تم التعرف عليه آنفاً ثم وهبها إلى الرهبان. وأضاف أنه سرعان ما أقيم المبنى فى عام ١٣٠٥م. وذلك

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 188-189.

(٢) لمعرفة المزيد عما واجهه جون دو مون كورفن من مؤامرات لدى وصوله كامبالييت راجع: Marcellin deCivezza, Op. Cit., Vol I, pp. 168-170.

خلال فترة قصيرة امتدت من بدء شهر أغسطس حتى الرابع من أكتوبر فى العام ذاته مقدراً أعداد المسيحيين الذين وسعهم المبنى الذى علته علامة الصليب الأحمر عدد مئتين مسيحي صينى، هذا وقد ضمت المنطقة محال تجارية تخص الطائفة. وكانت الكنيسة الملحقة بالدير قد شيدت على عجل أيضاً فى ذات الموقع حتى أنها غدت تستقبل زوارها فى فبراير عام ١٣٠٦م^(١). والواضح أن هذه الكنيسة قد اتخذت الطراز الصينى فى البناء، إذ استخدم الخشب كعنصر أساسى فى تشييدها شأنها فى ذلك شأن ما اتبع فى بناء القصر الإمبراطورى ذاته^(٢) والذى سوف تتعرض له الدراسة لاحقاً. أما الكنيسة الثالثة فلم نجد لها ذكراً عند أودوريك.

وفى إطار الحديث عن النشاط التبشيري نجد مجالاً هنا للوقوف على حدث التقاء أودوريك مع كبير أساقفة هذه الطائفة فى الصين جون دو مون كورفن، وبعد أن تعانق الرجلان واستقبل أودوريك بترحاب شديد وجد فى هذه المناسبة الفرصة كى يروى على الحضور سواء أكانوا من رجال الدين الفرنسيين أم من الصينيين أبرز ما واجهه من صعاب فى رحلته وإنجازاته فى مجال الدعوة، فأنثوا عليه وقدموا له واجبات الاحترام والتبجيل لما أظهره من مثابرة وجلد. ولعل أهم ما يمكن التأكيد عليه من أهمية فى هذا اللقاء أن المبشر أبدى إعجابه وانبهاره بما حظيت به الطائفة الفرنسية كإيمانها من حب أهل كامباليت بل وحب القصر الإمبراطورى والموظفين ورجال الدولة.^(٣)

أما عما يختص بالاتجاه الثانى فيما أورده أودوريك عن كامباليت الذى تناول فيه بعض مظاهر السلطة وأدوات الحكم المغولى، فقد احتل قصر الختان الأعظم مكاناً بارزاً فيه، فهو يقر بأنه حضر بنفسه العديد من الاحتفالات داخله، وأنه سجل ذكرياته عنه انطلاقاً من كونه شاهداً للعيان؛ ومما عنى بوصفه للمبنى أنه جدير بتحريك الحس، إذ يعد عجيبة لا يمكن أن تضاهيها عجيبة أخرى من حيث الضخامة والفعامة والبهاء

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.188; Cf. also: Matrod, ^(١) H., Op. Cit., p.129.

Matrod, H., Op. Cit., p. 129. ^(٢)

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., P. 187, Cf. also, ^(٣) Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, pp. 287-288.

«فمدخله يرتفع نحو قدمين عن سطح الأرض وتحيط به الأسوار التي تتخللها البوابات، وينتشر داخله عدد أربعة وعشرين عموداً طليت بالذهب. أما الحوائط فمغطاة بجلود مصبوغة بلون أحمر قيل إنها من أفخر أنواع الجلود في العالم، وفي وميط القصر يرتكز حوض كبير من الذهب على حجر كريم ضخيم بارتفاع قدمين هو بمثابة القاعدة، وتدل من أطراف الحوض لآليء نفيسة وذات حجم كبير، في حين يبتشق من كل جانب من الجوانب الأربعة للقاعدة ثعبان من ذهب فاغر فاه ويُغمر الحوض بشراب الإمبراطور، ويجواره تصطف آنية من ذهب أعدت للشرب يستخدمها المترددون على القصر. وفي أجزاء أخرى من القصر، يمثّل عدد كبير من الطواويس المصنوعة أيضاً من الذهب، وحينما يريد أحد التتر مداعبته [أى الخان] فيصبح مصفّقاً وحينئذ تفتح الطواويس أجنحتها وتبدو للرائي أنها تتحرك». وكان هذا الأمر جديراً بأن يسدى أودوريك له اندهاشه الشديد، وأرجع سبب ذلك إلى أمرين: فإما هناك عمل شيطاني، وإما أن يكون وراءه شخص ما متخفي يحرك هذه الأجسام^(١).

وبرغم ما سجله أودوريك من مادة طيبة عن عمارة القصر، إلا أنها في حقيقة الأمر جاءت مختصرة شاملة وهذا الأمر يتضح حين الرجوع إلى كتابات المعاصرين له المهتمين بوصفه؛ حيث حدد ماركو بولو موقعه في الجزء الجنوبي من كامباليت، في حين حدده ابن بطوطة في وسطها. ثم أوضح ماركو شكله فذكر الأسوار التي اكتفى أودوريك بتسجيل وجودها، بيد أن التاجر البندقى عرفنا بأن أرضية القصر قد اتخذت الشكل المربع، ويحيط بها خندق عظيم، كما حدد الأبعاد وقدر بشيء من المبالغة طول الضلع بثمانية أميال، وتتخلل هذه الأضلاع بوابات حدد ابن بطوطة عددها بسبع، وتم تخصيص مسافة ميل واحد للعسكر داخل الأسوار لتبدأ أسوار أخرى، وقد تخللت الأسوار الداخلية هذه ثلاث بوابات من جهة الجنوب وثلاث أخرى من جهة الشمال، خصصت البوابة الوسطى وهي الأكبر في كل منهما للإمبراطور. ثم أفاض ماركو بولو على مدى صفحات في الحديث عن الأبنية الداخلية

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 186.

(١)

والمخازن العسكرية والمزاغل والحواجز والبساتين إلى أن وصل في حديثه إلى وصف القصر ذاته مشيراً إلى ما أشار إليه أودوريك أيضاً بأنه شيد على مرتفع صناعي من الأرض^(١) موضعاً أن ذلك كان بغرض التخلص من ماء المطر والاستفادة منه في ري البساتين. ثم انتقل إلى وصف المبنى مبيناً أنه كان من طابق واحد ولكنه ذو سقف شديد الارتفاع^(٢).

وفي داخلات القصر يتأكد أيضاً صدق ما ذكره أودوريك من وصف عند مقارنته بما ورد عند ماركو بولو، بل وعند ابن بطوطة الذي جاء بعدهما؛ فقد أفاض البندقي في الحديث عن الأفاعي الذهبية وعن الأعمدة والألوان الزاهية والأواني الذهبية والفضية وعن القاعات الكبرى والغرف وما ازدانت بها. أما المغربي فيقول: «وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة»^(٣)، وبذلك لا نجد اختلافاً بيننا فيما ورد عند الرجلين الأوربيين (أودوريك وماركو) إلا فيما يتعلق بمحوض شراب الملك الذي كان أودوريك قد تناوله بالوصف التفصيلي، في حين تناول ماركو تجسيد الأجزاء الأخرى من المبنى بوضوح. ونخرج من عقد هذه المقارنة بأن الخنان المغولي الذي عاصر أودوريك خلال إقامته في كامباليث كان قد أبقى على مقر حكم جده قوبيلاي خان ليكون مقراً له. علماً بأن الخنان آنذاك هو يسون تيمور
Yesim Temir ١٣٢٣-١٣٢٨ م.

Marco Polo, Op. Cit., pp. 132-135.

(١)

اهتم ابن بطوطة فقط بشرح حال بوابات القصر والقائمين عليها والحاشية. راجع : رحلة ابن بطوطة، ص ٦٤٤. هذا وقد دخلت الكثير من التعديلات والإضافات على القصر كما دمرته النيران عدة مرات ولذا فهو حالياً يختلف عن ذي قبل، كما لا يزال هذا المرتفع الصناعي موجوداً إلى وقتنا هذا ولا يزال يحتفظ باسمه الأصلي كنج شان، ولكن يبدو أن أربعة مرتفعات أخرى من حجم أصغر أضيفت إليه منذ ذلك التاريخ. راجع: ماركو بولو: المصدر السابق (الترجمة العربية) ص ١٤٣، ح ١٣، ١٥.

Marco Polo, Op. Cit., pp. 128 -129 .

(٢)

Marco Polo, Op. Cit., pp. 129 -130.

(٣)

ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠.

ثم ينتقل أودوريك إلى رسم صورة حية لمجلس الخان الأعظم فى حضرته داخل القصر، فبينما يعتلى الخان العرش، فالملكة تجلس على يساره فى مستوى ينخفض درجتين ويلبها الأميرات اللاتي من النسل الملكى وفى صحبتهن الوظيفيات، وتكاد الأميرات، بخاصة المتزوجات منهن، تغطيهن الزينة والتيجان المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة. أما على يمين الخان فيجلس أكبر أبنائه والوريث الشرعى للتاج، وينخفض عنه بدرجة مجلس الأمراء الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى أيضاً، ذكر رشيد الدين الهمذانى أنه كان يطلق عليهم "جينكسانك" ثم يواصل أودوريك وصفه فيعلمنا بأنه يلبى هولاء أربعة من كبار الموظفين مهمتهم تدوين كل كلمة ينطق بها الخان، ويعلمنا الهمذانى أيضاً أن ذلك كان بمثابة قاعدة تتبع فى مجالس أمراء الولايات، حيث كان يلازم كل منهم أربعة كتاب لمعاونه فى أمور الحكم. ويستأنف المبشر رسم الصورة؛ أما فى المواجهة يصطف عدد من كبار الأعيان والنبلاء فى الدولة لا يمكنهم إصدار أى صوت إلا إذا سمح لهم بذلك، وفضلاً عن هولاء هناك مجموعة هم بمثابة المستشارين يقومون بتصحيح ما يصدر عن الخان من أخطاء فى حدود اللياقة المتعارف عليها. وأخيراً توجد مجموعة الرجال المسئولة عن الأمن داخل القصر، يقف بعضهم عند الباب ولا يسمحون بدخول أى شخص إلا بتصريح وإلا تعرض للضرب المبرح^(١)، والواضح أن هولاء احتصوا بتوفير الأمن داخل القصر. وعسى بذلك أن قصد المبشر وصف الديوان الأعظم بالقصر "شينك" للعاصمة كامبالت، وذلك استناداً على ما أوضحه لنا الهمذانى الذى سبقه تاريخياً إذ قال: «والديوان الأعظم لخان باليق فى غاية العظمة وتحفظ فيه دفاتر الديوان منذ عدة آلاف من السنين ويضبطونها بدقة. وفيه أيضاً

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 186-187

(١)

الهمذانى: المصدر السابق، م ٢، ج ٢، ص ٢٧٠، ٢٧٥-٢٧٦. وقد أفاض هذا المؤرخ المسلم فى عرض السلم الوظيفى حسب المراتب وكشف الكثير عن مهامهم الوظيفية والمسئوليات المستخدمة بلغة نادرة.

يحفظون القوانين بكل عناية. وموظفو ذلك الديوان قرابة ألفى شخص^(١). وهكذا، نجد المبشر قد ساهم بفاعلية فى التعرف على مجلس الخان المغولى.

وفى المناسبات العامة وحين عقد الولايم الرسمية يتم وضع تسعة آلاف رجل من السادة النبلاء Seigneurs فى خدمة الخان يضع كل منهم على رأسه تاجاً من الذهب، ويرتدى لباساً مرصعاً بالماس والأحجار الكريمة تقدر قيمته بما يربو عن عشرة آلاف فلورن، ولكل مائة من هؤلاء النبلاء الخدم قائد بغرض أن يكون الانضباط تاماً فيما بينهم^(٢). وهذه الرتبة لها ما يقابلها فى تشكيل الجيش حيث تبرز رتبة أمير مائة. وفى حقيقة الأمر فملاحظة أودوريك عن هؤلاء النبلاء الخدم لا تبعد كثيراً عن الواقع، إذ أن التنظيم الذى وضع أساسه جنكيز خان منذ ما يربو عن القرن لإمبراطوريته يقضى بتشكيل حرسه الخاص من مائة وخمسين رجلاً من المختارين يعرف الواحد منهم باسم كشيكيكى، ثم اكتمل العدد ليلبغ عشرة آلاف رجل تقريباً ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس وكان الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل فى الجيش، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان، إحداهما للنهار والأخرى لليل^(٣)، ويختار منهم ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أى الشجاع البارز، وكان هؤلاء يلازمون الخان لخدمته ولا يخرجون للقتال إلا معه ولا يتلقون الأوامر إلا منه^(٤)، وبالتالى نلمس بوضوح دقة تقدير أودوريك لعدد حرس الخان بعد أن يوضع فى الاعتبار طرح عدد الألف حارس الذين يقومون بالخدمة اللصيقة له جانباً من العدد الإجمالى المذكور.

أما عن موكب الخان وفقاً لرواية أودوريك، فإذا أراد الارتحال من مكان إلى آخر، فكان عليه الخروج وسط أربع فرق من سلاح الخيالة، تتألف كل واحدة منها من

(١) نفسه، ٢م، ج٢، ص ٢٧٨.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 187

(٣) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٥٥-٥٦. راجع أيضاً: فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول

فى التاريخ، ج١، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٤) القلقشندى: المصدر السابق، ج٤. ص ٤٢٤، ٤٢٨؛ محمود سعيد عمران: المغول وأوروبا،

الإسكندرية ١٩٩٧م. ص ٣٤-٣٥.

مهمسائة فارس؛ وهكذا يكون عدد المصاحبين للخان ألفى رجل، وهذا العدد هو بمثابة قاعدة لا يمكن تجاوزها، وإذا ما وقع عجز فى هذا العدد بسبب الوفاة يتم تعويضه على الفور، وتكتمل العملية التنظيمية لحركة الموكب الإمبراطورى وفقاً لزواية أودوريك على النحو الآتى: يتم وضع الترتيبات لتحركات الموكب بدقة مسبقاً، وتتقدم الفرقة عن التى تليها بفارق مسيرة يوم على أن يكون موقع الخان فى منتصف المسافة بين الفرقتين الثانية والثالثة، واتباع هذا النظام فدائماً ما يكون المكان المتوجه إليه على أهبة الاستعداد لاستقبال الخان. أما عربته فهى تتركز على عجلتين ويعلوها عرش فاره مصنوع من خشب الصبار الصلب ومرصع بالذهب والأحجار الكريمة، وتقوم أربعة فيلة وأربعة حيول بجر العربة، ويتولى أربعة من السادة الحراسة الخاصة للإمبراطور كان يطلق عليهم لفظة شيش Chuche كما يحيط بالعربة عدد اثنى عشر كلباً مدربين على الصيد، عادةً ما يطلقهم الخان لصيد الطيور على ما يبدو بغرض التسلية، وليس مسموحاً لأى شخص أن يقترب من هذه العربة تحت أى ظرف إلا بمسافة معينة. وهذه المراسم المتبعة بالنسبة لموكب الخان هى ذاتها التى تتبع بالنسبة لموكب الابن الأكبر للخان، وكذلك زوجته الملكة بيد أنها كانت تحاط بوصيفات^(١). وينبغى التأكيد على أن هذا التشكيل للموكب معتمداً على العسكر ليس بتشكيل الجيش القتالى عند المغول، إذ يلاحظ فيما أوردته المصادر أن الجيش كان يتبع الأسلوب المألوف الذى يقوم أساساً على تقسيمه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وهكذا.^(٢) وعلى أية

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 187-189.

(٢) ابن القوطى البغدادى (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١هـ، ص ١١٢. وللمعرفة التفاصيل الخاصة بتشكيل الجيش المغولى وبعض الفنون العسكرية المتبعة راجع: حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٢١٥. راجع أيضاً: فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، قدم له وراجعه: جوزيف نسيم يوسف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٣-٣٦.

حال فوصف موكب الخان على هذا النحو يعطى انطباعاً قوياً بمدى النعيم الذى يحيط بأسرة يوان المغولية الحاكمة.

وإذا ما كانت هذه هى المراسم الواجب الالتزام بها بين صفوف موكب الخان، فماذا عن موقف الأهالى منه عند زحفه ؟ فقد تحدث أودوريك عن ذلك أيضاً فأخبرنا بأنه قد جرت العادة عندما ينتقل الخان مع موكبه من مدينة إلى أخرى أن تستقبله الأهالى بمزيد من البهجة وذلك بإيقاد النيران أمام أبواب منازلهم ويقذفون فيها بأصناف البخور النادرة تعطيراً للهواء الذى يستنشقه الخان، فى حين تخرج الحشود لاستقباله^(١). ومن ثم نلمس أن عنصر إظهار الطاعة دائماً ما يكون واضحاً بين أفراد الشعب الصينى بثتى طبقاته تحت السيادة المغولية بداية من السادة والمعاونين المحيطين بالخان، وانتهاءً بمجموع الرعايا من الشعب الذى تشعب بالالتزام والطاعة.

وهناك قيمة حضارية إضافية أمدنا بها أودوريك فى حديثه عن السلطة الحاكمة، وفى هذه المرة تعرض إلى امتداد الإمبراطورية والتقسيم الإدارى، فذكر أنها من الاتساع بحيث لا يمكن قطعها سيراً طويلاً أم عرضاً إلا فى ستة أشهر على الأقل، وفضلاً عن ذلك فهناك حوالى خمسة آلاف جزيرة بها من الإمكانيات ما تكفى أهلها بل والزوار. هذا وقد قسمت الإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية احتوت إحداها على مملكة مانزى القديمة التى كانت تضم وحدها ألفى مدينة مهمة^(٢). وعلى هذا النحو فإن عدد الولايات التى ذكرها يتفق مع ما أورده المصادر الإسلامية المعاصرة، وبالتالى يختلف مع ما ذكره ماركو بولو سالفاً من أنها سبع ولايات فقط^(٣)، وقد يرجع ذلك

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenicelli, T., p. 189.

(٢) Odorio Da Pordenone, (ed.), Domenicelli, T., Loc. Cit.

(٣) الهمداني، المصدر السابق، ٢م، ج٢، ص ٢٧٨-٢٨٠.

Marco Polo, Op. Cit., p. 128.

اللفظة الإدارية التى عبر بها الهمداني عن كل ولاية هى كلمة: شينك، وأضاف أنه لما كانت تلك الممالك بعيدة عن بعضها البعض، فإنه يقيم فى كل منها أحد الأمراء من أبناء الخان أو أمير مشهور ومعه جيشه، وإليه يرجع أهل تلك الولاية، ويصرف مهامها ومصالحها، ويديرها ويحافظ عليها.

إلى إحداث نوع ما فى التطوير الإدارى داخل الدولة. أما عن اتساع الدولة بهذا القدر فلا يبدو معقولاً إلا إذا ما كان يقصد تقدير امتداد الممالك المغولية مجتمعاً بحيث تشمل قاطنى روسيا والهند وفارس إضافة إلى مغول الصين. ومن ثم يمكن القول بأن أودوريك كان ذى إدراك جيد يدفع إلى تقدير كتاباته برغم ما قد يكون بها من تجاوز، نظراً لضحالة المعلومات الجغرافية والإدارية بعامة فى هذا العصر.

من ناحية أخرى، تعرض صاحب الإرسالية لنظام البريد فى الدولة، فذكر لنا نوعين منه، يعتمد الأول على استخدام الخيول أو الجمال للانتقال على مراحل من هيام Hiam إلى آخر، وهى أبنية حكومية حرص الخان على إقامتها فى شتى أرجاء دولته، خدمةً للبريد، والعاى منه يقوم على أساس أن يمتطى ساعى البريد فرسه لينتقل إلى الهيام الآخر، وينفخ فى البوق حين الاقتراب منه بغرض استنفار ساعى البريد فيه، ومجرد الوصول يقوم بحمل الرسالة وامتطاء فرس آخر كان قد قام بإعداده إلى هيام آخر وهكذا... حتى تصل الرسالة أو الخبر إلى الإمبراطور (الخان) فى حضرته. أما العاجل فلا يختلف نظامه عن البريد العاى إلا فى استخدام الجمال. ونقل الخبر بهذا الأسلوب لا يستغرق سوى يوم واحد كى يصل من أقصى طرف فى الإمبراطورية إلى الخان، فى حين إذا لم يُتبع هذا النظام، فقد يستلزم وصول الخبر فترة مضاعفة. وفيما يختص بالنوع الثانى من البريد بأنه يعتمد على الأفراد، ويقوم على أساس تخصيص منازل لسعاة البريد تدعى شيديو Chidebo تفصل فيما بينها مسافة ثلاثة أميال يقطعها الساعى جرياً رابطاً حول حصره حزاماً ينتهى ببوق ينفخ فيه حين اقترابه من الشيديو التالى حتى ينبه المسئول فيه ليتلقف منه الرسالة إلى شيديو آخر ومسئول آخر لينتهى الأمر بمقر الإمبراطور. وهكذا يصبح باستمرار محيطاً بأخر الأخبار تبعاً، وفى فترة وجيزة.^(١)

وظاهرة تنظيم الخدمة البريدية فى الصين تعد من العلامات الحضارية المتطورة لهذه البلاد فترة العصور الوسطى، ويرجع البعض فضل ترتيبها إلى جنكيز خان الذى

أولاًها الاهتمام بغرض ربط أوصال إمبراطوريته الآخذة في الاتساع بشكل مضطرد^(١) وهناك مصادر أوربية وإسلامية أبدت قدراً واضحاً من العناية بإبراز هذه الظاهرة، وليس من المستغرب أن نجد في كتابات ماركو بولو ما يُعد تفصيلاً لما أتى به أودوريك من وصف لها، إذ تحدث عن نوعين من الخدمة، يعتمد الأول على الخيل والآخر على الأفراد متفقاً مع أودوريك فيما أورده في هذا الشأن. في حين أُطلق على مراكز خدمة البريد الحكومية مسمى يامب Yamb وحدد المسافة بين المحطة والأخرى باستخدام الخيل بمائتي ميل في النهار ومثلها في الليل، وذلك باستخدام المشاعل. كما تستخدم الأجراس المربوطة على الخصر في تنبيه الفارس المتأهب لاستلام الرسالة من المحطة التالية. تلك الوسيلة التي استبدلت باستخدام البوق طبقاً لذكر أودوريك وقدر ماركو عدد الخيل في محطات البريد مجتمعة المعدة لذلك بثلاثمائة ألف فرس، وفي كل محطة أربعمائة منها، تعمل بالتناوب. وهذا يعني أن الدولة ضمت سبعمائة وخمسين مركزاً للبريد. أما في حالة نقل الرسالة عن طريق الأفراد السعاة فكان الواحد منهم يستخدم الجرس، وفي المناطق المعمورة يقطع مسافة تتراوح بين الخمس والعشرين والثلاثين ميلاً حتى يصل اليامب التالي ليسلم الرسالة إلى ساعٍ آخر وهكذا. وفي الأصقاع غير المأهولة كان يقطع مسافة تتراوح بين الخمس والثلاثين والأربعين ميلاً، وذلك في مدة ثلاثة أيام.^(٢) وهو بذلك يختلف مع أودوريك في تحديد المسافة المقطوعة، ومع ذلك فبصفة عامة نجد ثمة رؤية قريبة الشبه لدى كل من الرحالة والمبشر تجاه هذا النظام بشكل يتيح أمام الباحث فرصة الاعتقاد في أن أودوريك إطلع على رحلة ماركو أو أفاد منها.

وقد ساهمت المصادر الإسلامية بنصيب في توضيح هذا الشأن؛ إذ ورد في أحدها أن الخان اهتم بإنشاء ديوان يتعلق بشؤون البريد والسعاة يسمى ديوان تونجنيون، واهتم مصدر إسلامي آخر بالشأن ذاته فأضاف موضحاً أن هناك موظفاً كبيراً عُيِّن

^(١) أيرين فرانك وديفيد براونستون: المرجع السابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

^(٢) Marco Polo, Op. Cit., pp. 163-167.

على هذا اللديوان يدعى "أمير الإخباريين" ثم أعطى المصدر ذاته بعض التفسير والتفصيل بقوله: «إن لهم [أى المسافرين] فى كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها، وأقبل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه وكتب به تفصيلاً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثانى له، ويأتيه براءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم. وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين [سونستالاي - كانتون] إلى بحان بالق [كامبالت - بكين]. وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد...»^(١). وهذه العبارة وإن كانت منصبة على خدمة المسافرين إلا أنها تلقى ضوءاً على جهود الدولة المغولية فى الصين لتنظيم حركة النقل عامة عبر الطرق التى تربط أطرافها الممتدة، ومن ثم يُظن أن المراكز التى عرفها المصدر باسم الفنادق بما ضمت من مسئولين ممثلين فى الحاكم وكاتبه وكذلك فى الفرسان والرجالة كانت هى ذاتها الهيام والشيديو الذين أشار إليهما أودوريك، واليامب كما أوردها ماركو. ولعل تشابه لفظة هيام ولفظة يامب مع كلمة خيام العربية ترجح أن دور البريد كانت تتخذ شكل البيوت السكنية عند المغول داخل الخيام خاصة فى البرارى والسهوب^(٢). وعلى كلٍ فقد نجح أودوريك فى توضيح بعض الجوانب الخاصة بهذه الخدمة وفى التأكيد على ما جاءت به المصادر الأخرى من معلومات فى هذا الصدد.

ولرحلات الصيد التى يقوم بها الخان وصف فى كتابات أودوريك يوحى بأنه كان شاهد عيان لها، إذ يذكر أنه على بعد قدره بمسيرة عشرين يوماً من كامبالت

(١) المذاتى: المصدر السابق، ٢م، ج٢، ص ٢٧٧؛ انظر أيضاً ابن بطوطة: المصدر السابق،

ص ٦٤٤، ٦٣٢.

(٢) للتعرف على مساكن المغول وتجهيزات الخيام، انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ،

ص ٣٣٢ - ٣٣٤.

كانت توجد غابة شاسعة يوغل فيها لمدة عشرة أيام تضم جميع أنواع الحيوانات. وعند بداية الغابة كانت توجد العديد من المخافر المتجاررة لتقوم بمهمة الحراسة، وهذا يمين أن الغابة تم إعدادها بحيث يقصدها الخان بغرض الصيد. ثم تحدث صاحب المدونة عن التفاصيل الفنية الخاصة بهذه العملية بشكل محدد، فتطرق إلى اعتماد الخان على القدم بمعدل كل ثلاث أو أربع شهور مع حرسه إلى الغابة ويتم إطلاق الكلاب والطيور المدربة على الصيد فيها، وسرعان ما تنجح فى مهمتها بأن تحيط الكلاب بالفريسة حتى لو كانت من الجاموس الوحشى أو الأسود وتستفزها، وفى ذات الوقت تقوم الطيور بالالتفاف فى حركة معينة فوق الفريسة لبتث الرعب فيها وشغلها. وينتهى الأمر بأن تجرد الفريسة نفسها قد وقعت فى فخ كبير ومحكم وسط نباح الكلاب المرتفع وأصوات الطيور المدوية. وسرعان ما تصاب الفريسة بالصمم جراء هذا الضجيج وتفقد توازنها وتدور حول نفسها داخل هذا الفخ. وحينئذ يتقدم الخان ممتطياً فيلاً ويقذف بمخمسه رماح على الحيوانات المحاصرة وكذلك الحال بالنسبة لمعاونيه الذين يدفع كل منهم بمخمسه رماح أيضاً. وعندما تنفذ الرماح من جعبتها، يصيح الخان ويأمر بفض الطوق من حول الفرائس طالباً الرحمة بهم، ويتم إطلاق سراح ما سلم منها وحصر الفرائس التى وقعت فى الصيد والتعرف على أصحاب الرماح التى نالت من الفرائس.^(١) وفى الواقع ففى عقد مثل حلقات الصيد هذه ما هو إلا تطبيق للالتزامات التى نص عليها الدستور المغولى ياساً بضرورة إقامة المغول لحلقات الصيد باعتبارها تدريباً على أساليب القتال. إذ كان تدريب الجيش المغولى يتم بالتعامل مع الطبيعة؛ فكل جندى يقوم بتدريب نفسه فى وقت السلم عملياً وذلك من خلال عمليات صيد الحيوانات والطيور والأسماك. فالمغولى راعٍ فى وقت السلم وجندى فى وقت الحرب^(٢). وبالفعل فوصف أودوريك يؤكد على ذلك حيث التزم الخان

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 190.

^(٢) القلقشندى: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٢٥، ٤٢٦؛ محمود سعيد عمران: المرجع السابق،

ومعاونوه وحرسه باستخدام أعداد معينة من الرماح وكأنها مباراة فى أثناء الرماية، إذ تم مقارنتها بعدد ما وقع من إصابات للأهداف من الفرائس، وفى ذلك ما يثبت أنه كانت تعقد مباريات تهدف إلى تنمية المهارة القتالية.

تعرض المبشر كذلك لأحد الجوانب الاجتماعية فى المجتمع المغولى فى الصين ألا وهى الأعياد. ويلاحظ ارتباط أغلبها بشخص الخان إذ كان يحتفل فى العام الواحد بأربع مناسبات أهمها: يوم مولده Nativitatis ويوم تنويجه Circumcisionis، بل تسجل إحدى الدراسات المتخصصة وجود عيد لذكرى جنكيز خان وتضيف أن يوم مولد الذى يتولى الخانية يعد أفضل هذه الأعياد، كما أكدت على أن عيد التويج كانت له أصول قبلية امتزجت بالتقاليد الصينية منذ قرون خلت^(١). ثم رسم أودوريك صورة جلية لهذه الاحتفالات، وفيها وضع المورخين (لعل المقصود بهم ملونو الأحداث) فى مكانة متميزة إذ وصفهم بأنهم سادة الأرض، فى حين وضع كل منهم على رأسه تاجاً من الذهب. ثم أوضح أنه بينما يجلس الخان على عرشه فإن السادة يجلسون كل فى مكانه وفقاً لدرجته الاجتماعية ونبالته، ويرتدى كل منهم حزاماً تم صنعه من الذهب وحلة مختلفة عن التى يرتديها السيد الآخر، ويحمل الواحد منهم حقيبة مصنوعة من العاج ويصطف هولاء فى صمت وبجوارهم الحكماء والفلاسفة^(٢).

ويضيف المرجع الأخير أن الحياة البدوية للمغول كانت تعتمد فى الأساس على حرفة الصيد، وكان الخان وكذلك حكام المقاطعات يهتمون بإقامة حلقات صيد رسمية نظراً لأهميتها الاقتصادية والعسكرية. وتعد لحوم الحيوانات هى الغذاء الأساسى للجيش، وكانت الجبال هى أفضل المناطق التى تختار لإقامة تلك الحلقات. وإضافة إلى ما ذكر أعلاه كانت الغزلان والديبة والنمور والثعالب هى أبرز ما يستهدفه الخان من الحيوانات خلال الصيد.

(^١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 190; Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., pp. 42, 223.

(^٢) ليس من المعروف لدى الباحث ما يقصده أودوريك بفتة الفلاسفة هذه، لعلهم الشيوخ أو علماء القصر، إذ من الثابت أن المغول نشطوا كثيراً فى دفع التقدم الإنسانى فاهتموا بالعلم ولاسيما علوم الفلك والنجوم والطب. انظر: بدر الدين حى الصينى؛ المرجع السابق، ص ٩٣.

الذين أُنيطَ إليهم مهمة مراقبة الساعة، وحين يأتي الموعد المحدد وفقاً لإشارة معينة يصبح أحلمهم قائلاً: «علينا أن ننحنى أمام سيدنا الإمبراطور» وفور سماع هذه العبارة يخلع الجميع تيجانهم ويخثون سُجَّدًا وقد لصقوا رؤسهم بالأرض. ثم تعلقو صيحة أخرى «انهضوا جميعاً!» وعلى الفور يلبون الأمر. وتكرر الصيحة بأمر جديد «كلي منكم يضع إصبعه فى أذنه» وعلى الفور يستجيب الجميع للأمر، وبأمر آخر ينزعون أصابعهم. وفضلاً عن ذلك فهناك العديد من المواقف المشبهة بتمارس بغرض إظهار الولاء والاحترام للخان الأعظم فى ظل رقابة مشددة من مجموعة كبيرة من الرجال أغلبهم كانوا من الموظفين وقليلهم من المؤرخين أو الكتبة. وفى حالة وقوع أى تقاعس أو إهمال من سيد ما فإنه يقع تحت طائلة العقاب الشديد^(١) وما من شك أن هذه التقاليد الرسمية تؤكد على ما عُرف عن المغول جميعاً بطاعتهم العمياء لقوادهم ثمناً مع الحياة العسكرية التى نشأوا عليها وأصبحت طابعاً فى حياتهم اليومية.^(٢)

وبعد إقامة هذه المراسم تبدأ وقائع الحفل. وطبقاً للعادات المغولية يعلن عن الاحتفال بإيقاد النيران فى العراء، تلك العادة التى تلاشت واكتفوا فقط بإضرام النار فى أحشاب موضوعة فى محرقة^(٣). ولم يشر أودوريك إلى هذا الطقس إذ من الواضح أنه اهتم فقط بما يحدث داخل القصر، فأورد أن الاحتفال كان يبدأ بطلب من الفريق الذى دعاهم بالفلاسفة بقولهم: «قدموا لإمبراطورنا احتفالاً رائعاً» وحينئذ يشرع المطربون والفنانون العزف على أدوات الموسيقى بأصوات مرتفعة قد تصيب الحضور بالصمم. وفى وسط هذا الضجيج يرتفع صوت يطلب السكوت التام، وعلى الفور تصمت الآلات وتتوقف الأغاني، وكان ذلك إيذاناً بدخول أهل الخان وقد امتطوا حيولاً بيضاء، وعلى الفور ينبرى موظف تم تخصيصه ليقوم بمهمة الإعلان عن تقديم

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 190-191 ^(١)

^(٢) أحمد مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، بيروت ١٩٦٩م، ص ١٤٦-

١٤٧م؛ محمود سعيد عمران، المرجع السابق ص ٣٥.

Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p 223. ^(٣)

أحد أفراد أسرة الخان عدد مائة فرس أبيض هدية إليه، وبالفعل يُساقى عدد كبير من الخيول نحوه. وهنا يأتي دور رجال الدين إذ يتقدم بعض من كهنة البوذية الذين برحوا معابدهم بغرض الانخراط في الاحتفال إلى الخان ليقدموا بباركتهم، وكذلك الحال بالنسبة للرهبان المسيحيين.^(١)

ثم يستأنف شاهد العيان تسجيل ذكرياته عن حفل الخان المغولي فانتقل إلى جانب آخر، فأخبرنا بالدور الذى لعبه أهل الفن والسحر؛ إذ قدمت المغنيات أغاني فى غاية العذوية، أما مروصوا الحيوانات فقد أتوا بالأسود المدربة وجعلوها تنحنى أمام الخان فى حين قام السحرة بتقديم ألوان مختلفة من فنونهم، ومن ذلك أنهم أمروا كوسًا ذهبية مليئة بالخمر بالانتقال إلى أفواه معاونى الخان، فتطايرت فى الجو إلى شاربها^(٢). والواضح أن أهل الصين قد برعوا بالفعل منذ أمد فى مسائل الفنون والسحر ويؤكد ذلك كل من ماركو بولو والهمذانى وابن بطوطة الذى أشار إليهم بالمشعوذين، فلإن ماركو بولو بين أنهم كانوا يشكلون طائفة مميزة تخصهم عرفت باسم باكسى Bactsi وتركت لهم حرية عمل كل ما يريدون فعله، ولهم أسلوب مميز فى الحياة يجنح نحو البهيمية، وهم يدعون أن أعمالهم تتم بتأييد من الإله، وكان قوبيلاي خان قد قرّب مجموعة منهم وعينهم فى خدمته داخل القصر وكثيراً ما أظهروا ألواناً من السحر أمامه مشابهة لتلك التى رآها أودوريك. وكان الخان قانعاً بأن لديهم القدرة على حماية قصره من العواصف والأمطار، ومنذ ذلك الوقت، ظل لهؤلاء وضعهم المميز داخل القصر حتى أنهم كثيراً ما قدموا النصائح والتحذيرات إلى الخان. ويؤكد الهمذانى أيضاً على الخطوة التى نالوها خلال عهد هذا الخان وخلفائه^(٣). وتضيف إحدى

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 192. (١)

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 191- 192. (٢)

Marco Polo, Op. Cit., pp. 107-109. (٣)

الهمذانى: المصدر السابق، ٢م، ج١، ص ٢٤٣، ج٢، ص ٢٩٨. وقد دهش ابن بطوطة لقدرة السحرة على أداء ألعابهم، وأورد قصة مفادها أن أحدهم بلغ من المهارة حداً تمكن بعده من =

الدراسات المتخصصة إلى ذلك أنهم ادعوا قدرتهم على تسخير الأرواح الشريرة مع بدء كل عام إما بغرض ممارسة فنون السحر، أو لمواجهة القوات المعادية، ويتم ذلك بقرع الأجراس وبرمي الرماح وسط ضجيج الغناء والصراخ^(١). وهكذا يتضح الدافع الذى جعل من السحرة فئة لها ثقلها داخل القصر حتى أن السحر أصبح عنصراً أساسياً فى الاحتفالات التى تقام داخله هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجتمع لدى الباحث المزيد من الشواهد التى تبرهن على صدق أودوريك فيما رواه.

على هذا النحو، يلاحظ أن أودوريك أولى قصر الخان وما يحدث داخله من طقوس فى أثناء الاحتفالات اهتماماً كبيراً، لكن من الواضح أن مرضه قد حال دون أن يملأ بعض التفاصيل الأخرى، ومن ذلك أنه لم يحدد المناسبة التى أقيم بسببها هذا الاحتفال الذى وصفه ويتبين من سرده للوقائع أنه كان بمناسبة أحد العيدين الأكثر أهمية لدى المغول وفقاً لدرجة الاهتمام الواضحة من خلال الوصف. ونظراً لأن طقوس الاحتفال بعيد التويج تشتمل على عادات تختلف^(٢) عن ما عرضه أودوريك من طقوس وعادات، فيعتقد فى أن الاحتفال الذى حضره كان بمناسبة مولد الخان.

أما فيما يختص بالاتجاه الثالث المنصب على إبراز جهود أودوريك التبشيرية فى كامباليت فهو يخبرنا أنه مكث ثلاث سنوات هناك، حرص خلالها أن يحضر مع زملائه الرهبان الاحتفالات التى تقام فى قصر الخان زاعماً أنه كان يتم تخصيص مكان

=إقناع الرائي بقدرته على تمزيق صبى وجمع أشلته من جديد. انظر: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٤١. والشكل رقم (١) المين لهذه الحادثة فى آخر البحث.

(١) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng., Op. Cit., p. 216

(٢) Wittfogel. K.A., and Chia-Shêng, Fêng., Op. Cit., p. 223.

ويضيف أن الاحتفالات بعيد التويج تتميز بطقوس ذات طابع قبلى مثل: يمتطى الخان فرساً ويقفز به ويسقط من عليه أرضاً فيتم تغطيته بغطاء وكأنه قد تم أسره، وذلك إشارة إلى أنه تولى المنصب، وفى اليوم التالى وفى طقس آخر، يقوم رجال الدولة بطرح بساط يجلس عليه الخان، ويتم رفعه بالبساط إلى أعلى، وهذه العادة انتشرت فى مجتمعات عديدة داخل آسيا وكانت ذات أصول تركية واتبعت حين توج جنكيز خان.

لهم فيه وأنهم كانت لهم السطوة على القادة والحراس، كما اعتادوا على تقديم البركات للخان ذاته. ولكي نتكشف أبعاد تلك العلاقة التي ربطت الخان والحركة التبشيرية ممثلة في أودوريك تبرز أماننا هذه الرواية التي وردت على لسانه: «حينما تم تحديد اليوم الذي سيعود فيه الإمبراطور إلى كامباليث... خرجت أنا في رفقة أسقفنا وبعض الإخوة [الرهبان] غير الرأشدين لاستقباله على بعد مسيرة يومين من المدينة، وعندما اقتربنا منه، قمت بتثبيت الصليب على عصا طويلة حتى يكون على رؤوس الأشهاد، كما أمسكت بيدي مبخرة وما لبثنا نترجم الجدل للرب Veni Creator، ومجرد أن سمعنا الإمبراطور... طلب أن يؤتى بنا إلى حضرته... وعندما رأى الصليب في عليائه ونحن قادمون إليه، قام على الفور بخلع التاج من على رأسه... فاشغى أمام الصليب...» وحينئذ ذكر أودوريك أنه قام في رفقة الأسقف بتبخير الإمبراطور وتقديم البركات، وقدمت المجموعة سلة فاكهة على سبيل الهدية متبعين العادة في ضرورة تقديم شيء ما للإمبراطور حين لقائه فأكل ثمرة منها واحتفظ بأخرى، وطلب منا التراجع خشية زحف الخيول وجحافل الناس «فامتزجنا بمجموعة من الرجال ذوي النفوذ الذين كان الرهبان قد أدخلوهم في العقيدة المسيحية، وقدمنا لهم من فاكهتنا التي تلقوها بسعادة غامرة وكأنها عطية قيمة»^(١)

وثمة بعض الملاحظات الجديدة بالذكر، فقد كانت سنوات إقامة أودوريك في الصين كفيلا بأن يدرك الكثير من التقاليد والعادات السائدة في المجتمع الصيني المصطبغ بالصبغة المغولية فالبرغم من كون الثوابت في هذا الشأن تقضى بأن تقديم البركات للخان يعد طقساً دينياً قاصراً على كبار الكهنة البوذيين دون أصحاب الديانات الأخرى، فإن أودوريك ينسب إشراك الرهبان الكاثوليك في هذا الفضل ولذا كان مبالغاً في إبراز تعاطف الخان مع المسيحيين في بلاده. أما فيما يتعلق بأمر تقديم الهدية؛ فالمعروف أن تبادل الهدايا يعد رمزاً للصدقة على جميع المستويات، ووفقاً لما عهده هذا العصر من الناحية الرسمية كانت الهدايا تتمثل في تبادل النفائس والملابس

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 199.

(١)

والخيول وبعض الأدوات الأخرى.^(١) وعليه نجد أن بعض ثمار الفاكهة المقدمة للخان لا تعلق أن تكون رمزاً للصدقة مع المسيحيين. ولكن على مستوى بعض رجال الدين البسطاء الذين يرأسهم مجرد أسقف، وكان أودوريك قد أشار إلى هذا الأسقف ضمن الفريق الفرنسيكاني وهذا بدوره يدفع إلى ملاحظة أخرى، إذ لم يأت ذكراً إلى وجود مطران كامباليت جون دو مون كورفن ضمن أعضاء الفريق، الأمر الذي تمخض عنه بروز أودوريك ذاته من أكبر رجالات الكنيسة الكاثوليكية في العاصمة ويفسر رمزية الهدية. وأخيراً ففي هذه الإشارات على هذا النحو ما يدل على أن كامباليت كانت تضم تنظيمًا كنسيًا واضح المعالم في ذلك الوقت يقوم على أساس العقيدة الكاثوليكية الفرنسيةكانية، وقد جاءت قوتها على حساب الكنيسة النسطورية.

في ضوء هذه المعلومات الموحية بأن الخان كان قانعاً بالمسيحية اندفع البعض للسؤال هل تحول هذا الخان إلى اعتناق هذه الديانة؟^(٢) وفي حقيقة الأمر، لم يذكر أودوريك ذلك، كما لم يثبت ذلك تاريخياً، إذ لم يشر أى من المصادر المتاحة إلى هذا الأمر، وفي هذا الخصوص خرج أحد الباحثين بعد دراسة أجراها على خانات فارس البوذيين أيضاً بنتيجة خلص فيها إلى أن جهود المسيحيين فشلت في تنصيرهم إلا أنها نجحت في جعل الخانات الأولى منهم يسرون على سياسة العطف حيال رعاياهم المسيحيين بل أن أحد هؤلاء الخانات (وهو بايدو Baido - حكم خلال عام ١٢٩٥م) كان يعلق صليباً ضخماً على عنقه ومع ذلك لا يكاد المورخون يجمعون على أن أحداً من هؤلاء اعتنق المسيحية^(٣) وإن كان ذلك الحكم قد أطلق على خانات فارس فإنه يشمل خانات الصين الذين لم يشهدوا ضغوطاً مسيحية بنفس القدر. وعليه يتبين أن خان كامباليت كان سعيداً فقط بما أحاطه به رسل البابوية من احترام وتبجيل، غير أن هناك إشارات لدى المبشر يؤكد فيها على أن الكثير من السادة

(١) Wittfogel, K.A., and Chia-Shêng, Fêng, Op. Cit., p. 239, N. 9.

(٢) Marcellin de Civezza, Op. Cit., Vol. I, p. 293.

(٣) مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ١٩٤٢م. ص ٩-١١.

والإتباع فى القصر تأثروا بالدعوة الفرنسيسكانية إذ قدر أودوريك أنهم بلغوا أربعمائة رجل كانوا ضمن حراس الخان الذين بلغت أعدادهم تسعة آلاف من الحراس النبلاء كما ورد سالفًا فى حين لم يكن هناك سوى مسلم واحد مبن بين هؤلاء الحراس^(١). ويفهم من هذا التصنيف للحراس أنه لا يخلو من تعظيم زائد لوضع المسيحيين ومكانتهم فى قصر الخان، فهم فى نظر المبشر أهل للثقة إلى الحد الذى اتخذت السلطة منهم حراسًا، شكلوا نسبة بارزة من حرس الخان، وفى ذات الوقت ففى تحديد عدد الحراس المسلمين برجل واحد يعد فى المقابل قليلًا من شأنهم فى هذه الموازنة.

وفى نظرة تقييمية لمدى صحة ما ساقه أودوريك من معلومات عند تصنيفه لعقيدة أفراد حرس الخان وبفرض الكشف عن وضع المسلمين بصفة عامة، فيجدر بالذكر أن كامبالييت وحدها كانت تضم إبان العصر المغولى ستة عشر مسجدًا قدر اتساع أحدها ليضم مائة ألف مصلٍ. وبلغت أعداد المسلمين من الكبر إلى الحد الذى دعا أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين إلى أن يذكر أنه تم تولية حكام مسلمين على ثمانية ولايات فى الصين فى هذا العهد، كما أن الوزيرين المسئولين عن المالية والجيش كانا مسلمين^(٢). وبقي الإسلام مزدهرًا فى أرض الصين حتى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى/ السابع الهجرى بدليل أنه كان «فى كل مدينة من مدن الصين مدينة [حى] للمسلمين ينفردون بسكناها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمععات وسواها، وهم معظمهم محترمون ... ولا بد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاضٍ يقضى بينهم»^(٣) واستمر وضع المسلمين متميزًا فى

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p. 188. ^(١)

^(٢) الهمذاتى: المصدر السابق، ٢م، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩٥-٢٩٧. وقد أورد هذا المؤرخ المعاصر والمدقق اسم هذين الوزيرين وهما: شمس الدين الملقب بالسيد الأجل، وعلى يحيى الأيورغرى. ويفهم من عبارات الأب جويل الواردة فى مقدمة كتومير لمصدر جامع التواريخ للهمذاتى أن نفوذ المسلمين لم يقتصر على المجال السياسى بل ضرب أمثلة لعلماء وفوى جاء،

انظر: جامع التواريخ، ٢م، ج ١، ص ١٢٤،

^(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٣٠، ٦٣٥.

البلاد وقدرت أعداد المساجد بالآلاف تم تشييدها في الفترة بين ١٣٥٠ - ١٦٥٠م. ولم يتوقف انتشار الإسلام إلا بعد هذا التاريخ^(١). وبعد تقديم هذه النبذة عن مسلمى الصين يتأكد لنا ضرورة أخذ ما أورده أودوريك عن التوزيع العددي لمعتنقى الأديان فى حرس الخان.مزيد من الحذر بعد أن بدا بوضوح تعصبه وميوله الدينية التى جاءت على حساب الحيده والموضوعية فيما يختص بهذا الجانب بعينه. وإضافة إلى الاتجاهات الثلاثة التى صنفنا اعتماداً على المادة التى قدمها مبشر هذه الإرسالية فى أثناء تواجده فى كامباليت، هناك بعض الملاحظات التى أدرکها بنفسه. وقد عرض فيها لبعض النواحي الخاصة بالمجتمع الصينى بعامة، فضلاً عن الشذرات الجزئية للمجتمعات فى المدن والبقاع التى مر بها ووردت بهذا البحث. فبينما وصف آنفاً أجسام أهل مدينة سونستالاي فقد أضاف أن الصينيين بعامة ذوى بشرة تميل إلى الصفرة بدرجاتها. كما أن الرجال غالباً ما كانت لهم لحى طويلة^(٢). وكان ماركو بولو قد تعرض لوصف الشعب الصينى وذلك عند وصفه لأهالى مملكة إرجينول Erginul التى حدد موقعها فى الجنوب الغربى حيث شرقى التبت ذاكراً أنهم ميالون إلى البدانة كما أن أنوفهم صغيرة وشعرهم أسود بيد أن من رأهم ماركو فى الغرب من الرجال كانوا بدون لحي وقد يكونوا ذوى لحية خفيفة^(٣). ولم يفست على المصادر الإسلامية وصف هذا الشعب فذكرت «أهل الصين أحسن الناس صورة ... قصار القدود، عظام الرعوس»^(٤). ومن ثم اتفقت المصادر الغربية والإسلامية إلى حد بعيد مع وصف أودوريك للشعب الصينى من الناحية السلالية إذ أبرزته بسماقه التركىة والمغولية.

(١) بدر الدين حى الصينى: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

ويقدر أعداد المسلمين فى الصين الشعبية حديثاً بنحو اثنين وسبعين مليون مسلم. انظر: محمد خميس الزوكة: آسيا، دراسة فى الجغرافيا الإقليمية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ١٩٠.

(٢) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.183

(٣) Marco Polo, Op. Cit.,p. 99.

(٤) القزوينى: المصدر السابق، ص ٥٣؛ راجع أيضاً: ابن الوردى: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٥.

كما كانت للعادات والتقاليد فى الصين الجنوبية نصيباً فى كتاباته، فالرجال اعتادوا على إطلاق أظافر أيديهم معتقدين فى أنها رمز للنباله، وخاصهً أظفر إصبع السبابة للحد الذى ينثنى بسبب طوله المبالغ فيه. أما النساء فكانت أقدامهن صغيرة الحجم وهى علامة من علامات الحسن والجمال، حتى أنه ظهرت عادة تقضى يربط أقدام الإناث برباط وهن لازلن فى المهده بغرض إيقاف نمو القدم^(١). وفى الواقع نجد رواية أودوريك قد تميزت بالوقوف على هذه الخصائص الدقيقة لجانب من العادات الصينية.

كذلك فقد لفتت نظره طريقة الأهالى فى الكتابة، فذكر أنهم كان لديهم أسلوباً مميزاً إذ تقوم على أساس الكتابة الرأسية فهى تبدأ من أعلى إلى أسفل. وتفيد المخطوطات المكتوبة باللغة الصينية خلال القرن الرابع عشر الميلادى أنها بالفعل كانت بالشكل الذى صوره أودوريك^(٢). أما أكثر الأشياء التى أثارت دهشته فهو استخدامهم للعملة الورقية، التى تعرف لديهم باسم باليس، فى كثير من معاملاتهم التجارية^(٣). وقد تعددت الإشارات فى رواية المبشر التى تعرض فيها إلى استخدام هذه العملة على نطاق واسع فى البلاد التى مر بها.

وبعد الثلاثة أعوام التى أمضاها أودوريك فى كامباليث دون الاسترسال فى الحديث عن إنجازاته فيها وتحديداً فى عام ١٣٢٨م، استأنف رحلته وجهوده التبشيرية فى أماكن أخرى بعد أن ترك الصين الحالية، حيث وصل مملكة دعاها كاولى Caoli (كوريا). وبعد رحلة خمسين يوماً سيراً بلغ مملكة أخرى دعاها بريسيزوان Précézoan (اعتاد ملوكها الزواج من بنات الخان الأعظم بغرض الحفاظ على أمنهم وعروشهم، كما كان زعماءها الدينيون البوذيون يعرفون بلقب اللامات، وما لبث أن توقف فى

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 178,183. ^(١)

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., p.190, cf. also : Morgan, ^(٢)
D., Op.Cit., p. 10

انظر الشكل رقم (٢) المين لطريقة الكتابة الصينية فى القرن الرابع عشر الميلادى فى نهاية البحث.

Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 180, 187, 190. ^(٣)

مملكة التبت التي كانت خاضعة لحكم الخان الأعظم، وفيها تحدث عن زيارته للعاصمة
توتا Tota (لاسا Lassa) وعن جهوده التبشيرية والديانة البوذية السائدة هناك والعادات
والثقافة مستغرقاً بضع صفحات ثم بدأ رحلة العودة إلى وطنه خاتماً إرسالته بهذا
القول: «أقر أنا أودوريك دو فريول أمام الرب وأمام السيد المسيح بأن جميع الأشياء
التي كتبت عنها إما أن تكون قد رأيتها بعيني وإما أن تكون تعرفت عليها من خلال
أشخاص جديرين بالثقة، وأسجل هنا أنني رأيت أشياء من المستحيل التصديق بها إذ
ليست لها نظير في بلادنا، ومن ثم لا يتقبلها سوى أولئك الناس الذين كانوا شهوداً لها
في تلك البلاد التي لا يعمرها الإيمان»^(١). وهكذا لم يعرفنا أودوريك بتفاصيل وقائع
رحلة العودة، إلا أن المهتمين بالتاريخ للإرساليات التبشيرية الفرنسية كانوا أكدوا على
أنه أبحر من البندقية، ثم انتقل سريعاً إلى مقر البابا يوحنا الثاني والعشرين Jean XXII
(١٣١٦ - ١٣٣٤ م.) في مدينة أفينون Avignon حيث أبلغه بمدى الإنجازات التي
حققتها الإرساليات التبشيرية بين الأمم المغولية حتى الصين وما بعدها من بلاد، ومن
ناحية أخرى طلب منه أن يسمح له بحشد ما يزيد عن خمسين مبشراً من ذوى الكفاءة
استعداداً للتوجه في إرسالية جديدة إلى الشرق لنشر الدعوة المسيحية لكنه سرعان ما
مخّر مريضاً وتوفى في عام ١٣٣١ م.^(٢)

(١) Odorico Da Pordenone, (ed.), Domenichelli, T., pp. 193-194, 196-199.

(٢) Marcellin deCivezza, Op. Cit., vol I, pp. 308-309.

خاتمة وتحقيب :

وبانتهاء استعراض وتحليل بل ونقد المادة التاريخية الحضارية فى كتابات المبشر الفرنسيسكانى أودوريك تمثل أماننا بعض النتائج والحقائق، ويتصدر ذلك تقييم جهود المبشر أودوريك فى إنجاز مهمته التبشيرية؛ فمن الصعب تقييم هذا الدور بمعزل عن الدعوة الكاثوليكية التى قادتها البابوية لتنصير الشرق مستعينة بعدد كبير من الرهبان. ومن الثابت أن الحركة التبشيرية فشلت فى إقناع أى من حكام المغول فى كل أنحاء آسيا باعتراف المسيحية. إذ كان تحقيق هدف التنصير أكبر من الإمكانيات البشرية والمادية للرهبان الذين قاموا بتنفيذه. ومع ذلك فقد سجل بعض الرهبان نجاحاً محدوداً للغاية فى تنصير بعض البوذيين وتحويل بعض النساطرة إلى الكاثوليكية، ومن هؤلاء كان أودوريك الذى أكد فى عدة مواضع على أنه مارس التبشير خاصة فى سونستلاى وزيتون وأهامزان وفى كامباليت. وتضمن حديثه أسباب الفشل التى نجح فى إبرازها عندما أشار إلى عائق عدم معرفة لغة الصينيين، أما اللغة التى كان على دراية بها فهى الفارسية، لغة الأهالى والتجار المسلمين الذين كانوا من القوة وعظم الشأن بالقدر الذى لا يسمح بتغلغل المسيحية فيما بينهم.

وفى إطار الإلمام بالبعد الدينى فى رواية أودوريك، تبرز قصة شهداء تانا التى شهدت زيتون نهايتها بعد أن تكبد عناء نقل رفاتهم ودفنها هناك. ووافق هذا العمل دأبه على الانتهاء من تشييد دير كبير فى المدينة. ومن ناحية أخرى يفيد التقرير الذى سجله المبشر عن جهود الطائفة الفرنسيسكانية فى التبشير داخل العاصمة كامباليت أنهم أظهروا نشاطاً مركزاً على شخص الخان بغية استمالاته إليهم، ولكنه اكتفى بإبداء عطفه واحترامه للمسيحية والصليب حتى كاد أودوريك يعده من المسيحيين. وبدت كتاباته عنه وقد غلب عليها المبالغة فى تقييم وضع المسيحية كدين بين أفراد السلطة الحاكمة.

والحديث عن التبشير بين طوائف الشعب الصينى والسلطة المغولية يقودنا إلى التعرف على ملامح الجانب الاجتماعى من خلال ما أورده أودوريك، فأصبح من الممكن إبراز التركيب الاجتماعى هناك فى عصره، وذلك اعتماداً على ما ساقه من معلومات نتيجة الاحتكاك؛ ومن ذلك نجد طائفة المسلمين الذين لم يذكرهم بالكفرة كما اعتاد أصحاب المصادر الغربية فى عصره، وأثبت لنا أن لهم طوائف كبيرة موزعة على العديد من المدن حيث تحدث إليهم فى سونستالاي وسعى إلى التبشير بينهم ودخل مساجدهم فى كل من زيتون وأهامزان، غير أنه يتجنب الحديث عنهم فى بقية المدن. أما فى العاصمة كامباليت فقد حاول أن يقلل من شأنهم ومن واقع أعدادهم بدليل أنه ادعى بأن لم يكن من بين حراس الخان النبلاء الذين قدر عددهم بتسعة آلاف حارس إلا مسلم واحد، وكانت المصادر الأخرى والإسلامية منها بخاصة قد أكدت أن مسلمى الصين فى الفترة المعاصرة نشطوا بالتجارة وشكلوا مجتمعات ومدن كاملة، كما أن العاصمة ضمت عددًا من المساجد تشهد بكثرتهم.

أما عن طائفة المسيحيين، فعادة ما كان المشر يبرزهم فى كتاباته بقصد الرفع من شأنهم، ففى سونستالاي أبدى اندهاشه لوجود جماعة منهم، وحرص على أن يقيم علاقة معهم وبالفعل أيدت المصادر الأخرى حقيقة وجود مسيحيين بشكل محدود فى تلك الجهة، بدليل وجود كنيسة فيها. وحين رأى فى أهامزان حادثة جمع الحيوانات للطعام بغرض إثبات عقيدة تناسخ الأرواح، أظهر اعتقاده فى أن الأرواح الطيبة هى لرهبان مسيحيين، كما أبدى حرصه على الحديث عن كل ما هو مسيحى سواء أكانوا رهباناً أم قساوسة أم كنائس وأبنية رأها فى أثناء الرحلة، وبالغ أحياناً فى تقدير أعدادهم ومثال ذلك حين ذكر أنهم بلغوا أربعمائة من بين حراس الخان الخصوصيين.

ولما كانت العقيدة البوذية ومعتقها يمثلان القاعدة الرئيسية للمجتمع فى الصين، فلذا كان من الطبيعى أن يأتى ذكر لهم حين الانتقال من بلد إلى آخر، ولم يتردد المبشر فى إقامة علاقات معهم، فلم لا طالما كان هدفه التبشير فيما بينهم؛ إذ كانت أولى خطبه التبشيرية أمامهم قد ألقاها فى مدينة سونستالاي حيث شعر بالألم والصدمة حين علم بأن الوثنية هى العقيدة السائدة فى مجتمع هذه المدينة بل وباقى الصين الجنوبية. وأبدى المبشر دهشته من كثرة المعابد البوذية فى زيتون حيث قدرها بثلاثة آلاف معبد تضم أحد عشر ألف صنمًا. وفى بقية المدن ومنها العاصمة كان الوثنيون وبالأحرى البوذيون هم الفئة الغالبة، ومما يشهد على ذلك تلك الطقوس والعادات البوذية التى اقترنت بالسلطة الحاكمة خلال احتفالاتهم وأنشطتهم التقليدية. وبصفة عامة، فنظرة المبشر الفرنسيسكانى إلى الطوائف الدينية والتركيب الاجتماعى للصين فى عهده كانت واقعية إلى حد ما وتمشى مع ما ورد فى المصادر المعاصرة، وإذا ما أجه إلى المغالاة فى تقييمه فكان بدافع من غيرته الدينية.

ولايكاد صاحب الرحلة يقوم بزيارة مدينة صينية ما إلا وتعرض إلى بعض من شئون أهلها الاجتماعية، ومن ذلك تسجيله لظاهرة ارتفاع المستوى العيشى لدى سكان سونستالاي إلى الحد الذى لا يوجد بينهم متسول واحد، وجاءت المصادر الأخرى لتؤكد هذه الظاهرة. بيد أن وصف الحياة الاجتماعية للأثرياء بل والخان حظيت منه باهتمام أوضح فأفاض فى الحديث عن الحياة اليومية لثرى فى الصين الجنوبية كان يقيم فى قصره الفخم؛ فتناول مأكله ومشربه وطريقة خدمته، أما فيما يتعلق بالخان فقد تعرض إلى ظاهرة اتخاذ المشاتى والمصايف والمجلس الذى يعقده فى القصر والموكب الخاص به وإقامة المآدب والحفلات فى المناسبات التى كان يحتفل فيها أسلافه وحضوره حلقات الصيد وارتفاع شأن السحرة والمشعوذين فى المجتمع الصينى. وهذه الجوانب مستها المصادر والمراجع بشكل متفاوت فى

الاهتمام بها. بيد أنه يمكن اعتبارها مكملة أو موضحة لما أتى به أودوريك من معلومات.

وكان للمرأة وضعها داخل المجتمع الصينى ذكر فى الرحلة فى أكثر من موضع، فقد وصفها أودوريك بالحسن، كما تعرض إلى بعض العادات والتقاليد المتعلقة بتميز المتزوجات منهن عن غير المتزوجات، فضلاً عن ذلك تعرض لدور النساء فى إدخال البهجة على قلوب الأثرياء داخل القصور بما كن يودونه من ألوان الغناء، كما أشار إلى مكان ابنة الخان والوصيفات فى مجلس القصر وإلى ثياب النساء وحليهن وزينتهن، وكذلك إلى تشكيل المركب الخاص بزوجة الخان وتشابهه مع مركب الخان ذاته، إضافة إلى الإشارة إلى جانب من الأساليب المتبعة للتجميل مثل اعتيادهن على ربط الأقدام بغرض التحكم فى حجمها. وهذا كله يشهد على أن المرأة الصينية كانت فاعلة وتحتل مكانة عالية، كما كانت تتصف بالتححر الذى لم يفته التنويه إليه.

وبالرغم من أن هدف الرحلة أساساً هو التبشير، وبالرغم من بساطة الراهب نجد أودوريك قد مس النواحي الإدارية التى تعرف عليها فى الصين بدقة؛ ومنها تسجيله لحقيقة أن موظفى الموانى كانوا رجالاً عسكريين من جيش الخان المغولى، كما هو الحال فى مينائى سونستلاى وزيتون. كذلك وقف المبشر بشكل صحيح على عدد الولايات التى شكلت دولة الخان فى الصين حين ذكر أنها وقت رحلته بلغت اثنتى عشرة ولاية متفقاً مع ما ورد بالمصادر الإسلامية فى هذا الشأن، ومن ناحية أخرى تمكن من التعرف على نظام نقل الخبر من أطراف الدولة إلى مركزها الإدارى فى العاصمة حيث قصر الخان، فتعرض بدقة إلى ما كان يقوم به ديوان البريد من خدمة سريعة تعكس حاجتاً حضارياً بارزاً فى المجتمع الصينى على عهد أسرة يوان.

أما فى الجانب الاقتصادى؛ فقد تضمنت الرحلة معلومات لها أهميتها عما يتعلق بهذا الخصوص، بالرغم من أن هذا الشأن خارج عن دائرة الاهتمامات الدينية لصاحبها؛ ففى سونستالاي تحلل الأسواق وانبهر بضخامة الطيور الداجنة مقارنة إياها بما فى بلاده، كما لاحظ انخفاض أسعار بعض السلع مثل الزنجبيل وتعرف على سلع غريبة عليه مشيداً بانخفاض الأسعار ورواج التجارة وتعدد الحرف واثقان الصنعة متفقاً مع ما ورد فى المصادر الإسلامية فى هذا الخصوص، الأمر الذى جعله يشهد على ارتفاع المستوى المعيشى فى مجتمع الصين المغولى. كذلك تناول المبرر فى سرده لذكرياته أساليب أهل الصين المتميزة فى مجال الانتفاع بلحوم الثعابين كطعام، وطرقهم فى صيد الأسماك. ومن ناحية ثالثة نلاحظ إبرازه أهمية محصول الأرز فى هذه البلاد حتى أصبح يقاس ثراء الأغنياء بحجم ما يمتلكونه منه، وتعرف على بعض المنتجات التى تستخلص من هذا المحصول الشعبى، وتعرف على الضرائب وحيل الأهالى فى مدينة أهامزان. وفى مدينة يمازى نبهنا إلى أهمية الملح كمنتج له عوائده الضخمة، وتعرض فى مواضع مختلفة إلى العملة الورقية باليس ووازنها بعملة الفلورن الفلورنسية، كما تعرض إلى أنواع الأطعمة ونظام المطاعم. وأخيراً لم يفت عليه أن يشير إلى الحرير وصناعته ومركز تسويقه حيث مدينة سنزيماتو، وبذلك وفق أودوريك فى إلقاء بعض الضوء على عصب اقتصاديات الصين المغولية.

وينبغى فى المجال الاقتصادى أيضاً التأكيد على ما يتعلق بكل من التجارة والعملة المستخدمة؛ إذ يلاحظ أن أودوريك مس هذين الجانبين فى مواضع مختلفة نظراً لحيويتهما، وبذلك مكننا من الوقوف على ثمرة فترة السلام المغولى داخل الصين؛ فمن ناحية تعرض إلى سوق سونستالاي الراجح بالسلع، وسوق سنزيماتو المتخصصة فى تجارة الحرير ومنتجاته، ومن ناحية أخرى أشار إلى الحرص على تمهيد الطرق بشكل أدى إلى وجود شبكة طرق آمنة ومخدمة إلى حد كبير، كما نجده

بدا شاهداً للعيان على الملاحة النهرية النشيطة للمسفن فى نهري يانج - تسي وهوانج-هو وعلى دور الموانى النهرية والبحرية فى حركة التجارة الكثيفة. وقد انعكس هذا النشاط التجارى فيما شهدته هذه البلاد من مرونة فى التعامل التجارى بفضل استخدام العملات الورقية، وفى هذا الصدد قدم أودوريك مادة مكملة لما أتى به ماركو بولو من قبل، وسابقة على ما جاء به ابن بطوطة من بعد.

وفى مجال آخر تناولت رحلة أودوريك بعض المظاهر العمرانية بالحديث؛ ومنها أنها اهتمت بتقدير مساحات بعض المدن ومدى ما وصل إليه العمران فيها، ومنها مدينة أهامزان التى أقيمت على أرض سهلية فكانت أجمل وأضخم مدن العالم أجمع، فقد طولها بنحو أربعين ميلاً ربطت الجداول المائية بين أطرافها المترامية. وتضمن الوصف تخطيط المدينة وانتظام إقامة المدن الاثنى عشرة المحيطة بها وإقامة الطرق المسورة الاستخدام التى تربط هذه المدن. وحين التعرض لوصف مدينة شيلفو ذكرت على أنها من المدن الضخمة وقدرت مساحتها بأربعين ميلاً، أما مدينة يمزاي التى هى بمثابة بوابة الصين الشمالية كما يستشف مما ذكره المبشر، فقد لفت نظره فيها مطاعمها الفاخرة بل وكنائسها النسطورية الثلاث إضافة إلى دير للرهبان الفرنسيسكان، وفى الوقت ذاته لم تشغل مدن مونزيو، لونكوى، سنزيماتو حيزاً مهماً فى كتاباته عدا أنه أشار إلى وجود سوق تجارى فى المدينة الأخيرة. بيد أن وصف القصور يعد من أهم ما قدمه المبشر من مادة عمرانية لتضمنها تفاصيل فنية وخاصة فيما يختص بقصر الخان المغولى فى كامباليت.

شددت مهارة أهل الصين فى بناء الجسور والبوابات فى العديد من المدن انتباه الراهب الفرنسيسكاني، فتحدث عنها. ومما سجله أن مدينة أهامزان احتوت على اثنى عشر ألف جسراً حجرياً، إضافة إلى اثنى عشرة بوابة، كما ضمت شيلفو عدد ثلاثمائة وستين جسراً تولى حمايتها حراس حكوميون وأحاطت الأسوار بالمدينة. غير أن العاصمة كامباليت حازت على اهتمام أوضح من قبل المبشر فى هذا المجال،

إذ تعرض إلى أسوارها والبوابات التي تخلفتها التي حصر عددها في اثنتى عشر بوابة، حدد موقع بعضها.

وإضافة إلى ما مدنا به أودوريك من مادة حضارية مهمة، نجح أيضًا فى تقديم مادة جغرافية ارتكن كثير منها إلى الواقع؛ وعلى سبيل المثال وفيما يختص بالجغرافيا الطبيعية وصفه للموانئ الساحلية وتفسيره لجودة استخدامهما مرافق لرسو السفن وذلك بحكم عمق المجرى النهري. مما يُعرف بالخوانق، ومن المعلومات المتعلقة بالجغرافيا البشرية إشارته فى أكثر من موضع إلى الصفات السلافية للشعب الصينى المرتكز على العنصر التركى المغولى، إذ لفت نظره تدرج لون البشرة من الصفرة الداكنة إلى الفاتحة، وكذلك القامة المتوسطة وعظم حجم الرأس والشعر الأسود الداكن والأعين المستديرة المنحرفة التى عبر عنها ببساطة الرهبان حينما شبه أهل سونستلاى بالقطط، وإضافة إلى ذلك نجده وقد أدرك حقيقة الكثافة العالية للسكان فى ذات المدينة وغيرها. ومن المعلومات المختصة بالجغرافيا الاقتصادية أنه تنبّه إلى أهمية محصول الأرز فى هذه البلاد، علاوة على تنويهه إلى أهمية الأنهار فى الملاحه والصيد.

وبالإضافة إلى ما ورد من معلومات متنوعة وقيمة برحلة أودوريك، ففى الواقع لم تخلُ رحلته من قصص وطرائف يصعب التصديق بها إلا أنها تكمل الصورة التى تكوّن فكر هذا العصر ومن ذلك أنه أورد عن أهل الصين من البوذيين اعتقادهم فى وجود سرداب يصل بين معبد العزل الروحى فى أهامزان والهند، بل قدم رواية عن رجل استحضر أرواحًا آدمية فى شكل حيوانات على أنها واقعة شاهدها بنفسه وذلك فى غمار تناوله لعقيدة تناسخ الأرواح فى البوذية. وعلاوة على ذلك تحدث عن تطاير ككوس الشراب إلى فم الخان وحاشيته على أنها لون من ألوان السحر الذى برع فيه فئة من الشعب الصينى.

وبعد هذه الدراسة المتفحصية لرواية ميشر فرنسيسكاني حباب بلادًا كثيرة من آسيا وما تلاها من تعقيب عمد إلى إلقاء نظرة شمولية متحررة من الترتيب التاريخي والجغرافي لمراحل إقامته في الصين، يتبين لنا اتفاق الرواية مع غيرها من روايات رحالة ومؤرخين مسيحيين ومسلمين، وأخص بالذكر هنا ما يتعلق بكتابات التاجر البندقي ماركو بولو ثم الرحالة المغربي ابن بطوطة. ويجدر بالذكر في هذا الموضوع أن هناك رأى ذهب إلى أن كتابات ماركو بولو قد دخل عليها إضافات كثيرة ممن لحقوه من الكتاب بفعل النساخ، وإذا ما سلمنا بصحة هذا الاتجاه فذلك يعطى لرواية أودوريك ثقلًا إضافيًا، وفي المقابل فإذا ما طرحنا هذا الرأى جانبًا واكتفينا بما تم ملاحظته من أن هناك اتفاق واضح بين أودوريك والذين سبقوه ولحقوه من الرحالة فذلك يؤكد في حد ذاته على أن المادة التي ساقها تعد محققة ولها وزنها التاريخي ويجب أخذ معظمها في الاعتبار.

ومما تقدم من دراسة لرحلة أودوريك دو بوردنون إلى بلاد الصين من مختلف جوانبها يمكن أن نستخلص أيضًا بعض الحقائق الإضافية؛ فقيما يتعلق بشخصية صاحب الرحلة يمكن تحديد ملامح منهجيته في تغلب النزعة الدينية عليه بحيث رأى كثيرًا من الأشياء تسير مواكبة لما تمناه؛ كأن تكون شرائح عريضة من شعوب المنطقة معتنقة للديانة المسيحية، كذلك سعى إلى مقابلة خان المغول الذي لم يستثن من أنه محب للمسيحية مبال إليها.

وأخيرًا يمكن القول بأن رحلة أودوريك هي رحلة مسيحي أخلص لدينه وقدم الكثير بل أفنى سنوات طويلة من عمره بغرض التبشير والدعوة للمسيحية في بلاد سادت فيها المعتقدات المخالفة فاستلزم منه الترحال من مكان إلى آخر ومن دير إلى آخر، فعانى مشقة الرحيل وقاسى برد الطبيعة القارس وحرها الخانق وتعرض لخطر المرض في نهاية رحلته ولم يثنه ذلك عن العودة ثانية إلى بلاده حيث إيطاليا للإعداد لرحلة ثالثة ولكن مرض الموت حال دون اتمام مشروعه، إلا أنه

دافعاً له من أجل إتمام رحلته فقدمت لنا معطيات مهمة تتمثل فى: دليل بأهم مناطق وجود المسيحيين فى الصين، ووصف لعادات الشعوب وتقاليدها هناك ومعجم لأهم المدن والبقاع والأبنية، وشرح للنظام الإدارى والحربى فى الدولة المغولية وللبلاط والحكم، وكثير من الصور الحية من واقع المجتمع الصينى فى مجال الاقتصاد والعمارة وغير ذلك من الجوانب الحضارية.

ومن ناحية أخرى فبالإضافة إلى هذه الأبعاد الخاصة بالمبشر أودوريسك فى رحلته إلى الصين فهناك أبعاد عامة، فى الجانب السياسى عكست مدى ما كان عليه النشاط التبشيرى الأوروبى فى آسيا والصين بخاصة بغرض استخدام العنصر المغولى فى محاربة المسلمين عربياً وأتراكاً الذين شكلوا عقبة فى وجه أطماع الأوربيين فى الشرق. كذلك لا يمكن إغفال البعد الاقتصادى ضمن الأهداف الأساسية من وراء تلك الرحلات التبشيرية، إذ دخلت فى إطار المحاولات الأوربية فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع بلاد الشرق الأقصى دون وساطة المماليك، حيث ظلت الأسواق فى الغرب فى حاجة ماسة إلى السلع الصينية وفى مقدمتها الحرير والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها، وكان المماليك فى تلك الآونة قد تحكّموا فى الطرق التجارية بين الغرب والشرق.

الملاحق

الملحق الأول :

بيان بالبقاع الصينية التي أوردتها أودوريك في رحلته ويتضمن أسماء المدن والجبال والأنهار التي اشتملتها الرحلة حاليًا باللغة اللاتينية وما يعادلها في النص المعتمد عليه، وكذلك الأشكال المختلفة في نسخ أودوريك اللاتينية والإيطالية والإنجليزية^(٥) لذات المكان، إضافة إلى المسميات العربية كما وردت في مصادرها. ولعل أهمية عرض هذا البيان تكمن في حصر الرسوم المختلفة لاسم المكان الواحد بغية تسهيل الاستدلال عليها.

م	النوع	الاسم الحالي وما يعادله في النص	الرسومات والمسميات الأخرى
١	إقليم ولاية	جنوبي الصين (مها - تشين) ولاية فوكين Manzi	Mantze, Manci, Mansiae, Mansi Mantzu, Manti, Mati, Manzy Man-tsu, Manza, Mangi, Mán-jin الصين الجنوبية، ماتشين، ماجين ماهاجين، ننجياس، ننجياس
٢	مدينة	كانتون Senstalay	Crustola, Censscolan, Censkalon Censcalan, Censcala, Conscala Cescallan, Censscanlan, Kalan Kouange-Tong, Cynkalan Sinkalan, Chinkalán, Sínkalán Cincalan كويلكي، تازيكان جين كلان، خانفو صينية الصين، صين الصين، صين كلان

^(٥) وردت هذه الأشكال المختلفة في حواشي النص الذي نشره دومينيشيلي وقد ضاهى بينه وبين تسع نسخ لاتينية وخمس أخرى إيطالية دونت جميعًا في فترات متباعدة ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلاديين. وكذلك النص الإنجليزي الذي ترجمه هنري بول عن النص الذي نشره كورديه.

م	النوع	الاسم الحالي وما يعادله في النص	الرسوم والمسميات الأخرى
٣	مدينة	تيوشان - تشو-فو Zaycon	Saitan, Kaitam, Zayton, Zaiton Chaicham, Kaycon, Tche-Tung Zanton, Zaton, Cartan, Catan Caicham, Saiton, Zataition Zaytún, Zeithum, Zayton الزيتون ، زا-ثيتون ، قيشيو
٤	مدينة	فو-تشو Sucho	Fozzo, Fuzo, Fucho, Suctio, Fuco Fuko, Fuc, Foro, Fulso, Foggia, Fulco, Fuju, Fluzo
٥	مدينة	هانج-تشو Aham sane	Chansay, Casai, Cansaiae Kasania, Chansanae, Campsay Chamsana, Cansare, Cansay Canzay, Guinzai, Ang-Cau-Fu Chonsai, Casaie, Catusaie Casay, Cansave, Canasaia حمدان، حينكساي، الخنساء، المدينة السماوية
٦	مدينة	كوى-سونج-فو (نانكين) - شيلفو	Chilemphe, Chilenfu, O Chilepho Chilopho, Chyleso, Chilenzo Chilenfo, Chisenzo, Chileraphe Chilenfe, Nanghin, Chilenso Nanking, Chilemfo, Chilense لوقين، نونكين، ثكينك Chilensi
٧	نهر	يانج - تسي Chanay	Dotalay, Thalay, Talay, Tulai Talai, Thanai, Piemaronni Chanay, Tanais, Tanay, Tannay Thanay, Thano, Talaig, Dotalay Ta-Kiang, Yang-Tze, Dalai آب حيا، ماء الحياة، السير، السرو

م	النوع	الاسم الحالي وما يعادله في النص	الرسوم والمسميات الأخرى
٨	مدينة	يانج-تشو Iancy	Iamzai, Iamzay, Iamsai, Iancus Iamzu, Iantu, Iamsai, Sai, Ianzi Jamzai, Janguì, Ianni, Jancy Jancus, Ianzu, Jamsai, Yangui Yamzai, Jamathay, Jamathoy Iamceu, Iangio, Yang-chau-fu Iangsé, Yamsé, Yaneku, Janku Tamghâdj-Khan
٩	مدينة	تشينج-شيان-فو Mency	Meuchu, Euza, Menzu, Mensy Mencu, Mantu, Mezu, Mencu
١٠	مدينة	لينج-تشينج Lencui	Lencium, Benzin, Lenzin, Bencin Lensium, Lencym, Conzin, Lezin Laurenza, Launcj, Lencim, Lenzi Lingui, Lancerny, Lin-Ching Lanterny جنج-ساي، خنك-ساي
١١	نهر	هوانج-هو Canamoran	Caramorian, Tharamoram Caramoran, Caramoraz Tharamorin, Caramorion Charamorani, kara-muren Hwang-Ho قاراموران، قرة مران النهر الأسود، النهر الأصفر.
١٢	مدينة	لين-تسين-تشو Sucumat	Sumacoto, Sucumat, Suzumatu Suzzumato, suzupato, Sumakoto Sucomago, sunzomaco

م	النوع	الاسم الحالي وما يعادله في النص	الرسوم والمسميات الأخرى
١٣	مدينة	بكين Cambalet	Cambalec, Cambalech, Cambalo Cabalec, Kanbalu, Cabul, Cambalù Cambalet , Cabalec, Peking Ki-Yu-Chau, Nan-King, Yen-King Chung-Tu, Ta-Tu, Khan-Baliq Cambaluc, Pei-P'ing Fu, Ying-Tien خانباليق، خانقو، خان باليق، خان باليغ، سندابل، جونكلو، قيدو، دايدو، مدينة الإمبراطور، العاصمة الوسطى، العاصمة الكبرى
١٤	مدينة	شانتو Sando	Shandu, Sandu, Zandu, Sandoy Sanday, Sandur, Sadu, Ciandu Chandu, Xanadu, Kai P'ing Fu Shang-Tu, Shangtu, Tchao-Naiman Soumè-hoton ساندو، زانادو، كيمين-فو
١٥	إقليم	شمال الصين Cathay	China الخطا، تشين، جندان، ختان، قرة خطاي

الملحق الثاني :

قائمة بأسماء خانات المغول في الصين

أسرة يوان Yüan

(١٢٦٠ - ١٢٩٤ م.)	Qubilai	١- قوبلاي
(١٢٩٤ - ١٣٠٧ م.)	Temür Oljeitü	٢- تيمور أولجيتيو
(١٣٠٧ - ١٣١١ م.)	Hai-Shan	٣- هاي-شان
(١٣١١ - ١٣٢٠ م.)	Ayurbarwada	٤- أيورباروادا
(١٣٢٠ - ١٣٢٣ م.)	Shidebala	٥- شيدبالا
(١٣٢٣ - ١٣٢٨ م.)	Yesün Temür	٦- يسون تيمور
(١٣٢٨ م.)	Aragibag	٧- أراجيباج
(١٣٢٨ - ١٣٢٩ م.)	Toq Temür	٨- توك تيمور
فترة ثانية ١٣٢٩-١٣٣٢ م.)		
(١٣٢٩ م.)	Qoshila	٩- كوشيلا
(١٣٣٢ م.)	Irinjibal	١٠- إيرينجيبال
(١٣٣٣ - ١٣٧٠ م.)	Toghon Temür	١١- طوغان تيمور

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع الأجنبية

- Chau Ju-Kua, On the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, ed. and trans. from the Chinese and Annotated by Friedrich Hirth and W.W. Rockhill, Amsterdam 1966.

- Marco Polo, The Travels of Marco Polo (The Venetian), Revised from Marsden's translation and edited with introduction by Manuel Komroff, U.S.A., New York 1930.

وقد أفاد الباحث من الحواشي الموجودة في الترجمة العربية. انظر: ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها للإنجليزية وليم مارسدن ونقلها للعربية عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٧٧م.

- Marignolli J., Account of his Mission, ed. & trans. by Henry Yule Cathay and the Way Thither, vol. III, London 1913.

- Odorico Da Pordenone, Sopra la Vita ei Viaggi del Beato Odorico Da Pordenone dell'Ordine de Minoriratto, ed. Domenichelli.T., La direzione del P. Marcellino de Givezzo, Prato 1881.

Odoric of Pordenone, Cathay and the Way Thither, vol II, Rev., ed. by H. Cordier, trans. by H. Yule, London 1913.

* * *

- Atiya A.S., *The Crusade in the Later Middle Ages*, London 1938.
- Barthold, W., *Turkestan Down to the Mongol Invasion*, trans. from the original Russian and Revised by the Author with the assistance of Gibb., H.A.R., Second Edition, London 1928.
- Golubovich, G., *Biblioteca Bio - Bibliografica Della Terra Santa E Dell'Oriente Franciscano*, Tomo III, Collegio di S.Bonaventura, 1919, pp. 374 - 393.
- Kedar, Z. B., *Crusade and Mission, European Approaches Toward the Muslims*, U.S.A., New Jersey 1988.
- Mabel Craff Deering, *The National Geographic Magazine*, Washington, Juin 1927.
- Marcellin de Givèzza, *Histoire Universelle des Missions Franciscaines*, Traduit de l'Italien par Victor Bernardin de Rouen., III vols, Paris, 1898.
- Matrod, H., *Odoric De Pordenone (1265-1331), son «chemin de pèrègrination»*, Paris 1938.
- Morgan, D., *The Mongols*, U.S.A., 1996.
- Moule, A.C., *Christians in China Before the Year 1550*, London 1930.
- Nowell Charles, E., *The Historical Preste. John*, *Speculum*, vol 28, 1953, pp. 4-35.

- Oswald Siren, The Walls and Gates of Peking, London 1926.
- Panikkar, K.M., Asia and Western Dominance, A Survey of Vasco da Gama Epoch of Asian History 1498-1945, London 1959.
- Turner Ralph, the Great Cultural Traditions, The Foundations of Civilization, the Classical Empires, II Vols, New York-London 1941.
- Wittfogel, K.A. & Chia Shêng-Fêng, History of Chinese society, Liao (907- 1125), New York 1949.
- Wyngaert, Anastase von Den, O.F.M.: Jean de Montcorvin, O.F.M., Premier Evêque de Khanbaliq (Pe-King), 1247- 1328, Lille, France 1924.

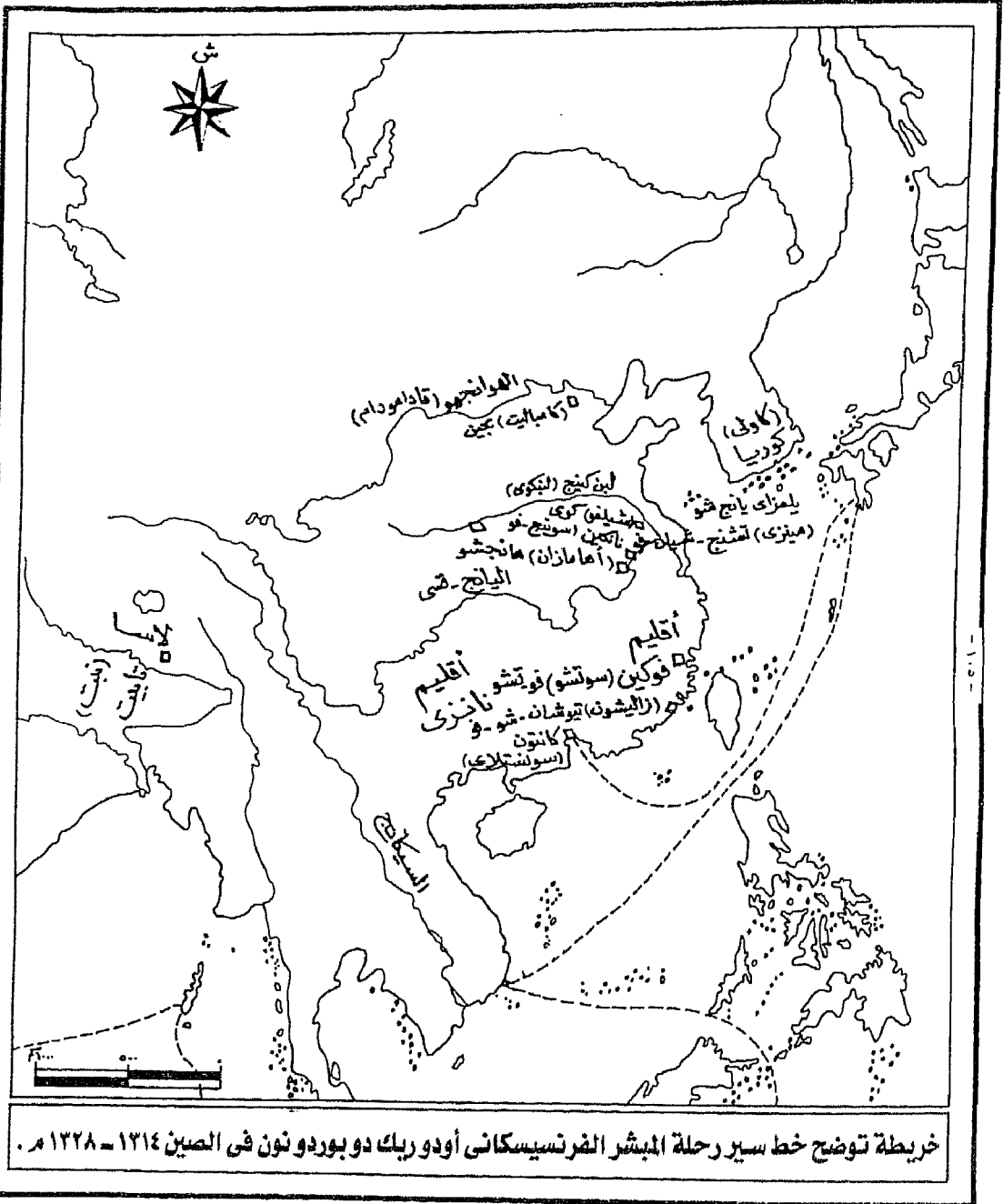
ثانيًا: المصادر والمراجع العربية والمعربة

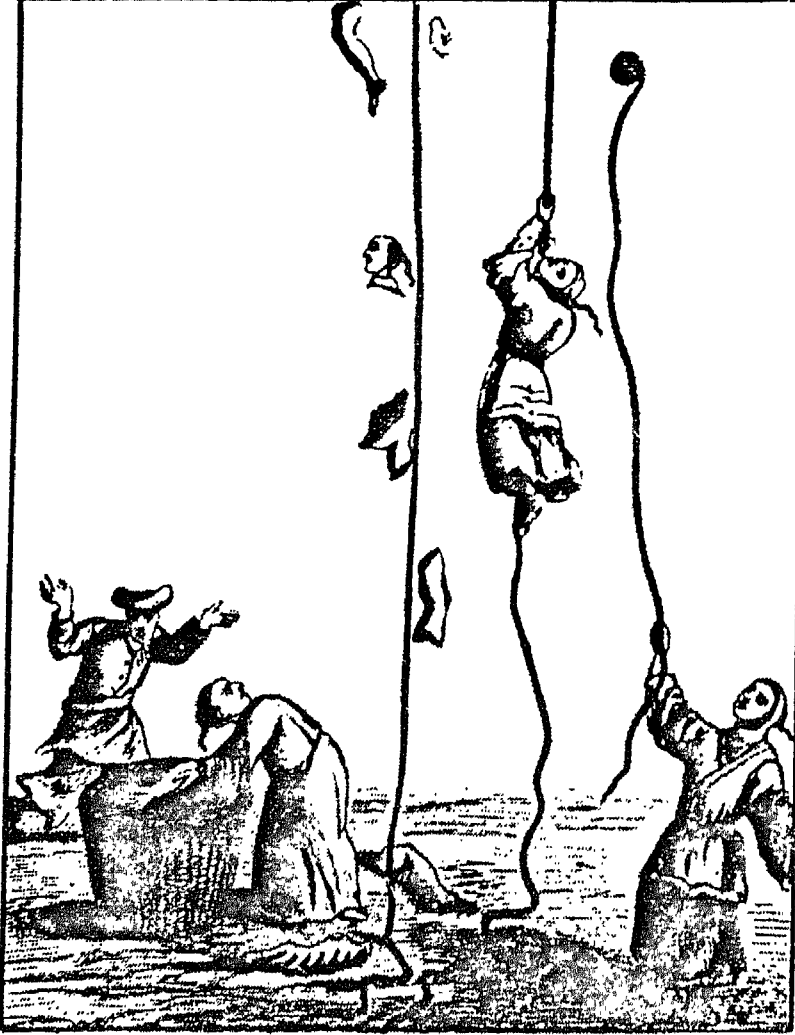
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتب هوامشه وعلق عليه: طلال حرب، ط ٢، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، ليدن، ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م.
- ابن الفقيه الهمداني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق المعروف بابن الفقيه الهمداني: كتاب البلدان، تحقيق: يوسف نهادي، بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- ابن الفوطي البغدادي، كمال الدين عبد الرازق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح وتعليق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١هـ.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب النديم: الفهرست، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ.
- ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر: تمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، ج ١، ج ٢، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٨م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد: نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، نشر: راثن مولر، ليدن ١٨٩١م.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، القاهرة ١٩٦١م.
- جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام. ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.
- سليمان السيرافي، (سليمان التاجر السيرافي): سلسلة التواريخ ج ١، نشرة لانيجلس، ١٨١١م.
- القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محرز: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

- القلقشندى (أبو العباس أحمد القلقشندى): صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج٤، القاهرة ١٣٣٦هـ.
- المسعودى، (أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى): مروج الذهب ومعادن الجواهر: تحقيق محمد ولى الدين عبد الجميد، ج٢ بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
- الهمدانى (رشيد الدين فضل الله): جامع التواريخ: تاريخ المغول، الإيلخانيون، تاريخ هولوكو، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، القاهرة ٢م، ج١، القاهرة ١٩٦٠م، تاريخ خلفاء جنكيز خان بن أوكتاي قآن إلى تيمور قآن، نقله إلى العربية فؤاد عبد المعطى الصياد، مراجعة يحيى الخشاب، م٢، ج٢، بيروت ١٩٨٣م.
- * * *
- أرنولد توماس: الدعوة إلى الإسلام، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحرولى، القاهرة (د.ت)
- إيرين فرانك، ديفيد براونستون: طريق الحرير، ترجمة: أحمد محمود، القاهرة ١٩٩٧م.
- بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ط١، القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م.
- حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول: غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، القاهرة ١٩٤٩م.
- السيد الباز العرينى: المغول، بيروت ١٩٨٦م.
- عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى، ط١، القاهرة ١٩٩٧م.
- فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين الممالك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، قدم له وراجعته: جوزيف نسيم يوسف، القاهرة ١٩٧٦م.
- فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ج١، بيروت ١٩٨٠م.

- الشرق الإسلامى فى عهد الأيلخانين، أسرة هولاكوخان، الدوحة ١٩٨٧م.
- لويس شيخو: النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول، مجلة الشرق، بيروت، العدد ١٦، ١٩١٣م، ص ٧٥٤-٧٧٢.
- محمد خميس الزوكة: آسيا، دراسة فى الجغرافيا الإقليمية، الإسكندرية ١٩٨٥م.
- محمود سعيد عمران: المغول وأوروبا، الإسكندرية ١٩٩٧م.
- مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة ١٩٤٢م.
- نقولا زيادة: الرحالة العرب، القاهرة، ١٩٥٦م.

الأشكال والخرائط

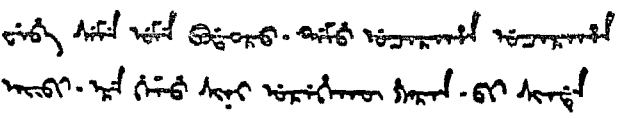


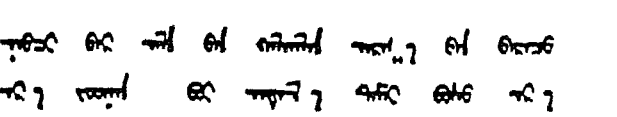


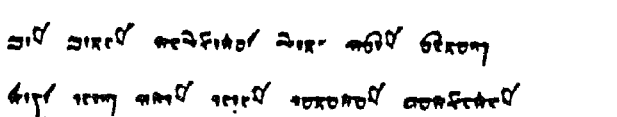
شكل رقم (١)

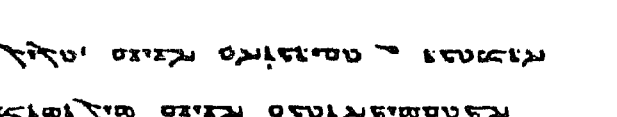
جانب من ألعاب الخواة والسحرة في الصين على عهد أسرة يوان.
نقلًا عن : إيرين فرانك، ديفيد براونستون : المرجع السابق، ص ١٢٨.

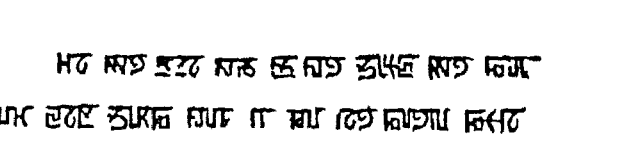
ALPHABETIC SCRIPTS

Manchu


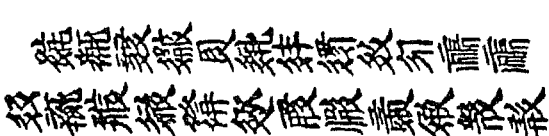
Mongolian


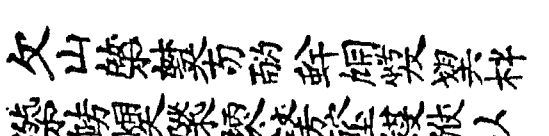
Uighur


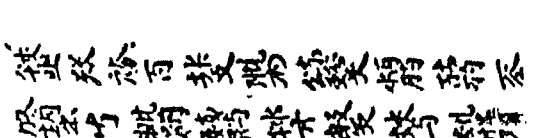
Syriac


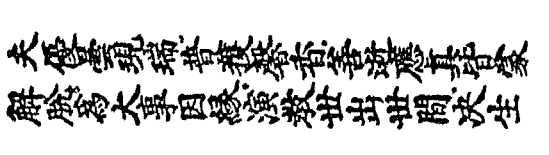
Phags-pa


CHARACTER SCRIPTS

Hsi Hsia


Jurchid


Khitai


Chinese


Scripts used or created by Inner Asian peoples

شكل رقم (٢)

طرق كتابة استخدمها وربما ابتكرها شعوب آسيا الداخلية. تضمنت الحروف الأبجدية المغولية وطريقة الكتابة الصينية. نقلاً عن : مورجن

